عدنان كنفاني

قبور الغرباء

قصص

© حقوق النشر الإلكتروني محفوظة ل

www.nashiri.net

© حقوق الملكية الفكرية محفوظة للكاتب

نشر إلكترونيا في أكتوبر 2003

لوحة الغلاف للفنان زهدي العدوي

محتويات الكتاب

- الإهداء
- المقدّمة
- تموت أمي مرتين
- الجرح المقيم
- قبور الغرباء
- الحدود
- يوميات فأر مخلص
- وعاد النورس
- وجوه لا تنسى
- الغوراني والدوشكا
- الحكيم بتاح

الإهـــداء..

إلى فرسان الكلمة
يحملون نبضها، مع نبضهم..
خارج ثلاّجات الانتظار.!

عدنان كنفاني

مقـدّمـة

درجت العادة أن يلجأ الكتّاب إلى سبيلين لتقديم كتبهم للقراء..

إما أن يكتب أحد من الكتاب أو الشعراء أو النقّاد المعروفين "وبتكليف من المؤلف" مقدمة فيها كـمّ صارخ من عبارات المجاملة للكاتب وكتابه، تخرج في غالب الأحيان عن الموضوعية والحيـاد، ولا تتعامل مع المادّة من منظور نقدي أو عرضي..

بل تأتي على صورة استعراضية بحتة، تكيل المديح للكاتب أولاً وللكتاب وما يحتويه ثانياً.

وكثيراً ما تخرج من حيث الصياغة عن كونها مادّة تقديمية، لتدخل في مضمار مسمّيات أخرى لا أرغب في التعرض لذكرها..

والعجب العجاب الذي سمعت عنه، وبعد المتابعة تأكدت منه، أن بعض كتـاب هـذه المقـدمات المشحونة بالمديح للمؤلف، وتتويجه بصفات ومترادفات عديدة مثل "الإبداع أو التحليق، أو خلـق مدرسة جديدة، أو قدرة استثنائية على اختراق الزمان والمكان وروعة الحدث والشخوص و... إلى ما هنالك من اختيار لكلمات مديح تزخر بها " والحمد لله" معاجمنا"..

أقول إن أعجب ما سمعت ورأيت أن بعض كتاب المقدمات يفعلون ذلك لغايـة تجاريـة بحتـة، باختصار "مقابل أجرة"..

تقرأ المقدمة الزاخرة، ثم تبدأ في قراءة الكتاب، –وأنا هنا للأمانة لا أعمّم–.!

تلعن سنسفيل مؤلف الكتاب، ومن قدّم له..

هذا سبيل مطروق للتقديم..

أما السبيل الأخر فهو باختصار أيضاً يأتي تحت عنوان "كلمة الناشر"...

وغالباً ما تطالعنا هذه الكلمة على الغلاف الأخير للكتاب..

تحضرني في هذه اللحظة كلمات من مقال لـ "فارس فارس" الاسم الذي كان يختفي وراءه غسان كنفاني.. كتبه في مجلّة الصيّاد عام 1967 وفي زاوية كلمة نقد..

[أسوأ ما في الكتب الجيّدة، الكلمة التي يكتبها الناشر عن المؤلف على قفا الغلاف، أولاً لأن الناشر لا يكتبها بل المؤلف..

وثانياً لأن المؤلف وقد تأكد أن الناشر سيوقّعها، يقوم بفشّ خلقه، وحلحلة عقــده، فيســكب لنفســه المديح دون حساب، ويتحدّث مطوّلاً عن مبلغ عمقه وإبداعه، ويتوّج نفسه أحسن من عليها، ويسبق النقّاد بسيف الناشر..

فلا نستطيع أن نشتمه لأنه مادح نفسه، ولا نستطيع أن نشتم الناشر لأننا نعرف أنه لم يكتب الكلمة، وربما لم يقرأها.!]

ولأنني لا أرغب في اتّباع أحد السبيلين آثرت – كما في مجموعتي الأولى "حين يصدأ الســلاح"– أن تأتيكم مجموعتي الثانية هذه، دون تقديمات، اللهم تقديمي المتواضع لها من خلال هذه الكلمات، وتقديمها لنفسها..

وهذا ما أعزوه لسبب واحد "إيماني به مطلق". ملخّصه أن المتلقّي هو الهدف والغاية..

وهو الحكم الأول والأخير..

ولأن مجموعتي "بقصصها وأبطالها وحركتهم في الزمان والمكان" جزء لا يتجزأ مــن تطلّعــات وهموم ومعاناة وحركة المتلقّي نفسه.. أعني ذلك المتلّقي، المسكون بالهمّ الوطني والقــومي، هــذا الهمّ المسحوب على دقائق حركته اليومية، والمؤثّر على مجموع أمانيه المنتزعة "على الغالب" من صميم مفردات واقع الإحباط والتردي الذي نعيشه جميعاً.

خرجت من حيازتي الفنية، ودخلت في المفاصل التي تخصّكم..

كل ما أرجوه أن تصلكم..

عدنان كنفاني

تموت أمّي مرتين.!

إلى فايزة..
تقولين، أنا بخير..
فأقول..
ثمة من يرحل.. ولا يرحل أبداً..!

أشّعة شمس فاترة شّقت ستائر النافذة، وتسّربت بطيئة خجولة، لامست باستحياء صفحة وجهي، وكنت أحسبها لن تشرق أبداً..

خرجت إلى الشرفة فقابلتني وجوه الناس.!

كل يشّق لنفسه طريقاً في هذه اللجّة..

سخرت من نفسي..!

في ظهيرة الأمس، حين نضح في رأسي صوت مكبوت، مفجوع آت من بعيد، كلمتان فقط:

– "ماتت فايزة"

صمت كل شيء بعد ذلك..

أحسست أن جسدي فقد أثقاله، وصار شيئاً هشّاً ليس له معنى، يتخبط في فراغ، بين كومات ذكريات صريعة هي الأخرى تترنّح تحت جبروت كلمة صغيرة، ربما شكلت حروفها الثلاث أصل اللغات والكلمات.

توقّفت فجأة حركة الحياة من حولي، رغم ضجيج مرهق يجثم دون معنى على صدري، في أذنيّ، تحمله إلّي كلمات وراء كلمات..

كلمات.. وكلمات..

لو أنها تنتشلني من هذا الشعور.؟

تقول لي:

يا أخي لا تحزن.. أنا بخير.!

أنا بخير.. كيف حالكم أنتم..

هل خرجت "هدى من المستشفى".؟

هل ولدت أمل..؟

كيف حال أم محمود وأولادها.؟

هل اطمأنت عمتي على ابنها المفقود..؟

ألف هل، وألف كيف.!

مثلما تبدأ هكذا دائماً، تنتهي هكذا دائماً، ولا تتحدث عن نفسها..

تقول.. أنا بخير..

يطل وجهها من عمق خمسين سنة ونيّف..

يومها بدأنا معاً رحلة اللجوء..

كانت أكبرنا..

الذعر ينقّض على حارات وزواريب عكا..

اليهود يدخلون البلد..

الناس يتراكضون جماعات وفرادى، الأطفال بين الأقدام، وصراخ المنادين بالأسماء والصفات يضيع وسط صخب الزحام، وضجيج الرصاص والقنابل..

تصمد فايزة..

تربط في الذراع الأيسر لكل واحد منا صرّة، كتبت عليها بقطعة من الفحم أسماءنا واسم عائلتنا، ووضعت في كل واحدة الملابس الضرورية التي تخّصنا..

جمعتنا وقوفاً صفّاً واحداً وقالت بحزم:

– إذا افترقنا فأنتم تحملون أسماءكم وملابسكم.. إياكم أن تنسوا..

لكننا لم نفترق..

كانت تراقبنا على مدار الساعة، تعدنّا بين اللحظة واللحظة وتحرص على التصاقنا بها وكأننا قطيع فراخ..

تحاول بصلابتها أن تبدد خوف أمي العارم الذي ألقاها مشلولة التفكير، تبكي وتبكي، ويتضاءل جسمها شيئاً فشيئاً..

وتحاول أن تمارس فن الانتظار مثلما يفعل أبي..

قالوا نعيدكم منتصرين بعد ستة أيام.. لكنهما بعد أكثر من ستة أيام، أدركا أن ليس كل ما يقال صادقاً وحقيقياً..

عندها بدأت رحلتنا المرّة..

واستقر بنا المقام في قرية "الزبداني" بعد جولات مضنية حملتنا من عكا، إلى الغازيّة، إلى حمص.

كنت وقتها أحمل سنوات عمري الثماني على كتفي ساعة أفزعتني صرخات أمي:

– فايزة فحّمت.. فايزة ستموت.!

كلمات ما فهمت منها إلا فزعاً ورعباً وانتظاراً لأمر جلل وضعني بعد لحظة أمام باب دار "أم إبـــراهيم" أصرخ أنا الآخر:

– فايزة فحمّت.!

ولا أعرف ما تعنيه الكلمات..

لا أحد يسمعني.. أصرخ أكثر.. تقطر دموعي في حلقي، فانبطح أرضاً، أرى من عقب البـــاب نســـوة بدينات ملفوفات بمناديل بيضاء يتحلّقن حول أطباق الغسيل.. يهدر إلى جانب كل واحدة مـــنهن "بـــابور كاز"..

أدفع الباب بقوتي فيهّتز، أرفعه فيخرج من مفاصله ويهوي..

فايزة في أرض الدار بينهن، ملفوفة بأسمال تشبه المناشف أو الشراشف..

كأنها مسحوبة لتوّها من الحمّام الذي فحّمها..

وأنا بين جمع النسوة، أراقب بذهول ذلك الوجه الملائكي تعلوه صفرة باهتة، تنساب عن جنباته خيـــوط ماء برّاقة كسيل شمع يذوب محترقاً حول بصيص اللهب..

واحدة تدلق على وجهها ورأسها "كولونيا"، وأخرى "تفقش" فحل بصل كبير وتدعك به يـــديها وجبينهـــا، وثالثة تحرّك الهواء من حولها.. وأمي تضرب على صدرها..

بإعياء فَتَحت عينيها، نظرت في الوجوه المتحّفزة من حولها.. رفعت يدها، أمسكت رأس أمي وهمست:

– لا تقلقي، أنا بخير.!

كيف تمضي الحياة دون "فايزة".؟

كيف تشرق الشمس وتتحرك الوجوه..؟

هناك خلف ملايين الكثبان الصفراء..

وراء عواء الضباع، وصلابة قوافل الإبل، صمدت يوم لم يصمد الرجال، وصـــنعت بصـــمت بعـــض الرجال..

دَرَست ونَجَحت وعَمِلت..

أول راتب منتظم يدخل حياتنا كان من سيل عرق سكبته في قرية "قارة" على ضفاف بادية الشام.. وحين قُبلت للعمل في الكويت قالت إنها ستكون بخير..

وحيدة في حافلة طويلة، كأنها نعش عملاق، حملت أعوامها التسعة عشر تحت عباءة ســـوداء ســـميكة، ومضت إلى صحراء ملقاة على ضفاف خليج ليس لها أن تراه إلا من بعيد..

منذ خمسين سنة ونيّف..

والسماء هناك تختفي وراء ضباب عجيب لا يغيب.

رمال تطير وتتراكم وتطير ثم تقف وسط الأفق، تحجب حتى الرحمة المستجداة من القدرة الخفية.. ما أصعب غزو الرمال.!

هي ذرّات لا تتحلل تبقى كما هي وتجول في الحلوق والصدور والرؤوس، تجعلك –وأنت تعجز عن التقاط النَفَس– تكره اللحظة التي خُلقت فيها..

تهرب من لهيبها على عجل لتدخل من جديد بين جدران إسمنتية سميكة خلف لوح أسود، وأمام صغيرات يتلقّفن العلم..

بين ركام من الطباشير والدفاتر وساعات باقية من ضوء النهار تعيشها أيضاً بين جدران إسمنتية في سكن المعلمات المغلق تماماً في وجه الحياة كأنها علب الجواري..

ينقضي اليوم، واليوم الثاني، والعاشر، والألف في مجتمع يتّصور القوّامون عليه أن من يأتيهم بالعلم والحضارة، مجرد خدم..

ينقضي الشهر، ويحمل لنا في آخره "روبيات" تقيمنا على الحياة، ويحمل لنا رسائل تسأل عن كل واحد منا، عن الكبير والصغير.. القريب والبعيد..

وكلمات لا تنسى:

– أنا بخير..!

تنقضي السنة، ويعود النعش العملاق يحمل أكوام اللحم المصهورة إلى أيام لقاء معدودة، تحمل معها الهدايا للجميع..

لوازم البيت الرئيسة والهامّة.. ما يعين أمي ويخفف عنها بعض الجهد والتعب.. الدفاتر التي نستهلكها في العام الدراسي المقبل، أقلام وقمصان وأحذية جديدة برّاقة، لنا.. لبسناها واستعملناها لأول مرة في حياتنا الجديدة بعد اللجوء..

ترعى مواهبنا الصغيرة التي صارت كبيرة بعد أن كبرنا، تتابع سنة بعد سنة تحصيلنا ودراستنا ودرجات نجاحاتنا، وما يرفد ذلك من لوازم مادّية ضرورية للاستمرار،ومعنوية على سبيل التشجيع أو المكافأة.. وهذا ما استمّر مع الجيل الثاني أيضاً..

عندما أنجبت "لميس" وليدها الأول في عملية قيصرية، أمسكت يد أمي.. وهي تعرف أن الجرح ما زال ينزف.. وأن السكري قد تمكن من غزو جسدها..

قالت:

– لا تقلقي، أنا بخير..

آه من جفوة الكلمات كيف تلتوي عنيدة في وجه رغبة الوصف، ولا تقدر أن ترسم ما يجب أن يرسم..

الكون الذي ضاق في ظهيرة الأمس، مع رشح الصوت الحزين "ماتت فايزة"..

أوشكت لحظتها أن أمسك أطرافه في قبضة يدي الواحدة، ولا يتّسع ليأسي..
صار رغماً عني مع تدفق هذا الصباح على قدر من الاتساع..
أراه الآن، هذا الأفق المترامي في عمق اتجاهات أربع..
في كل ركن تقف.. تبتسم.. تغرز في لحمها صباح مساء حقن "الأنسولين".. وتأكل جسدها عناكب الحزن التي فجعتها بأمها لتفجعها بعد حين، بلميس وغسّان..
تجتّر بين شراييها مرضاً لئيماً يفجؤها بشيء ما بين الحين والحين، يرسل غيبوبة، يستأصل إصبعاً، يطفئ عيناً.. وتعمل نصال الحزن الحادّة تقطيعاً فيها..
جلدتها سياط الغربة وفقدان الأحبة واحداً بعد الآخر وصيّرتها هيكلاً يتحرك في فضاء الآخرين..
تقول:
– أنا بخير..!
زوجها الذي فقد البصر أو كاد، وضربته نقطة دم على دماغه وضعت ألف قيد على حركته ولسانه وإرادته..
هذا الذي لا أستطيع أن أمّر على ذكره دون انحناءة إعجاب وعرفان..
هذا الرجل الذي بفعل الإخلاص والوفاء والإيثار أدخل العلم والمعرفة إلى عقول آلاف الشباب من خلال تدريس أعقد المواد العلمية "الرياضيات" ووضع المناهج التعليمية المثالية على مسيرة نصف قرن أو تزيد..
بدأت بالجيل الذي تبوأ –فيما بعد– أرفع المناصب، وامتدّت إلى أجيال وأجيال ستذكره ولن تنساه..
هذا الذي يتعّلم الوفاء منه أصفى الدروس.. المتّفهم العاقل المتّزن الكريم.. لا أستطيع أن أجد الكلمات التي تفيه بعضاً مما هو فيه.. رفيق عمرها وعمرنا، وصانع سلواها..
لعله كان سبيل النور الذي قادها في لحظات أو ساعات إلى بوابات عبور مشرقة، تمثّل لنا الآن، بعض العزاء..
صارت له بعد أن أنهكته رحلة العمر يديه التي تلمس، وعينيه التي تقرأ وترى، وسلوته..
تلوك غربتها وحزنها ومرضها، لكنها في لحظات تنتصب وتهمس:
– أنا بخير..!
كيف تمضي الحياة دونها.؟
مشكلاتنا الصغيرة والكبيرة التي كانت تنزاح أمام همسة منها أو كلمة أو إشارة لا تزيد..
بيتها هناك أو هنا كانا ملاذاً للغرباء، يجدون فيها الأم والأخت والصديقة..

سؤالاتها المتواصلة عن الجميع، تساعد هذا وتعين ذاك، تذوب أمام دمعة طفل، وتضحك أمامها الـــدنيا ساعة تستطيع أن تجعله يبتسم..

أسير إلى جانبها في سوق الحميدية، يتابعنا فتى يحمل بين يديه الصغيرتين علبة فيها أمشاط.. يرجونـــا لنشتري منه، ويلّح في الرجاء.. تسأله:

– كم ثمن الواحد.؟

– ليرة ونصف..

– بل ليرة واحدة..

– طيب ليرة وربع..

– بل واحدة..

– قبلت..

تأخذ ثلاثة أمشاط وتعطيه عشر ليرات..

أسألها:

لماذا "تنشّفين" ريقه إذن.. تبتسم بصفاء، تقترب مني وتهمس:

– هذه الابتسامة على شفتيه تساوي مال الدنيا، بعد أن أيقن أنه لم يقدر على استغفالي..

هل حقاً تعود الحياة إلى سيرتها الأولى..؟

رغم البعد، كانت أقرب إلينا من حبل الوريد، نسمع بوحها وهمساتها وأنينها، وتسمع منا أيضاً..

كيف يغيب هذا المَلَك ولا تتبدل الدنيا إلى أشياء أخرى.؟

من هم إذن الذين بغيابهم "يُنقصون الدنيا من أطرافها".؟

ما زالت أشعة الشمس تمتّد وتمتّد، وما زالت وجوه الناس تروح وتجيء..

كأن شيئاً لم يحدث.!

هل حقيقة أن شيئاً لم يحدث.؟

هذا البناء الذي يضمني الآن.. وأكتب ما أكتب وأنا أعيش بين جدرانه وتحت سقفه..

أعلم أن فوق كل حجر فيه نقطة من عرقها.. يهمس البلاط الذي أدوس عليه أنها دفعت من أجله وأجلنا عصارة دمها، وشبابها، الذي انسكب وانتهى خلف ملايين الكثبان الصفراء..

عاشت من أجل غيرها، أحبت من خلال الناس كل الناس..

فهل أصّدق أن الأرض لم تنقص بفقدها.؟

يوم نجحت ابنتي في فحص الثانوية العامّة بتفّوق، أصّرت كما هي العادة أن تحمل لها هدية ثمينة علـــى أن تختارها بنفسها.

رافقتها إلى أحد محلات بيع المجوهرات لتختار من معروضاته ما تشاء..
كانت الفرحة العارمة بادية على وجه ابنتي..
قبل أن تلجا باب المتجر، ضرب نزيف حاد عينيها، وعكّرت نقطتا دم السائل الزجاجي فيهما وانحجبت الرؤيا بالكامل..
صمدت. وابتسمت..
– عمتي.. اختاري ما تحبين..
– هذا الخاتم يا عمتي، ما رأيك به.؟
– الله يكاد يأكل قطعة من إصبعك..!
– هذا العقد يا عمتي.؟
– ضعيه عل صدرك.. الله يكاد يتكلم من شدّة جماله..
حملت ابنتي هديتها الثمينة، أحسّت أن في الأمر شيئاً..
– عمتي ما الأمر..
– لا شيء، لا شيء أبداً، أنا بخير.. أشعة الشمس فقط تؤذيني، امسكي يدي..
فتحت لهما الباب، فانهارت على صدري تبكي بحرقة.. تحاول أن تتماسك ولا تستطيع..
تقول:
أنا بخير لكنني لا أرى شيئاً.. لا أرى شيئاً..
قال الطبيب نزيف مفاجئ.. "ثم أردف باستسلام"
هكذا يفعل السكري.!
بعد أشهر عاد بطيئاً بصيص النظر بعد أن بدأ يصفو السائل الزجاجي في العينين..
قبر جديد ينزرع في بقعة أخرى..
حتى في الموت حرّم علينا اللقاء..
من حرّم علينا حتى اللقاء بعد الموت.؟
لأول مرة أنظر إلى غسّان ولا أراه يبتسم..
يقول لي:
– الآن فقدت روحي..
أمي وأبي قبران في دمشق..
غسّان ولميس قبران في بيروت..
فايزة قبر في الكويت..

لا أصدّق أن رمل الشرق يستطيع أن يأكل حتى ما بقي منها.!
تربعت الشمس وسط السماء مثلما تفعل كل يوم، وسيأتي المساء، تغيب، ثم تشرق مع الصـــباح التـــالي، وستبقى وجوه الناس تعيش في اللّجة..
التاريخ وحده الذي يبقى ويصدق، ويعطي قيمة للصفات..
عندما أقبل المساء، وخلوت إلى نفسي.. بكيت كما لم أبك كل حياتي..
كيف أقدر أن لا أفعل بعد أن أدركت أن بقية من العمر ستمضي دون فايزة..

الجرح المقيم..

أخي غسّان:

جراحك مقيمة..
لكنها ما تزال تنقلنا
إلى صباحات عكا..

الساعة الواحدة، ظهر يوم السبت 8 تمّوز 1972 خبر مقتضب بثّته إذاعة لندن..

[انفجار سيارة يودي بحياة الأديب غسان كنفاني وسط ظروف غامضة..]

بعد دقائق كنت في سيارة أجرة، منطلقة، تطوي تحت عجلاتها الطريق إلى بيروت..

أتوسل لأول مرة في حياتي أن تقابلني هناك كذبة.! أجمل كذبة يمكن أن يستقبلها إنسان، تقول: إن الخبر برمته ليس له أساس من الصحة..

ولأول مرة في حياتي أيضاً أجتاز حدوداً بين دولتين، بلا جواز سفر، ولا تأشيرة، ولا تصريح..

فتحوا أمامي البوابات، وحمّلوني بنظراتهم الطيبة الحزينة، وتصرّفاتهم الجادّة الصغيرة المخلصة والمرتبكة، أنبل المشاعر طافحة بالأسف والعزاء..

مذياع السيارة يدندن لحناً شعبياً ليس له معنى، أجاهد كي لا أطلب من السائق تبديل المحطة، أدحرج في رأسي كرة ثلجية أريدها أن تكبر وتكبر..

توهمني "فأقبل" أن كل ما يحدث أضغاث أحلام، كذبة سخيفة كبيرة، ليس أكثر..

يهتّز الدب القماشي الصغير المعّلق على المرآة.. يتراقص وهو يفتح فمه عن ابتسامة طفولية بريئة.. لونه أسود أيضاً..

ذلك الدب الأسود القبيح الكبير الذي علّقه والدي فوق سريري..

أيقظوني ليلاً..

أخبروني والبشر يطفح من وجوههم، أن أمي ولدت..

سألت، قالوا طفلة جميلة.. أدرت ظهري ورفعت الغطاء فوق رأسي..

في اليوم التالي، أحضر والدي ذلك الدب الأسود القبيح.. علّقه فوق سريري تماماً.. أردف بنزق:

– لن يترك مكانه إلا عندما يتأكد أنك تحب أختك. الطفلة الجميلة التي جاءت بها أمك، هدية لنا من السماء..

كنت في السادسة من عمري.. بكيت كثيراً في تلك الليلة، وكلما أدرت وجهي أهرب من اهتزازه المرعب، تلاحقني نظراته القبيحة.. فابتلع صوت بكائي، أخاف أن ينّقض علي ويأكلني.. يهتّز يمنة ويسرة، أسمعه يسألني بين الفينة والفينة:

– هل تحّبها.؟

أقول: – نعم.. نعم..

ولا أسمع صوتي من شدة الرعب..

يقترب غسان من سريري، يسألني بلهفة:

– خائف.؟

أهّز رأسي. فيبتسم بسخرية..

كان عمره عشر سنوات.. همس في أذني..

– تقف على حافّة السرير، وتقطع الخيط الذي يتعلّق به، ثم تلقيه من النافذة..

تملكتني مشاعر بلهاء.. كأنني سألته.. وبعد.؟

أجاب وهو يرسم على شفتيه ابتسامة انتصار:

– تنام الليلة مطمئناً.. وفي الصباح تقول إن الدب غادر مكانه بعد أن أيقن أنك تحبها..

كنت في السادسة من عمري..

أدركت فيما بعد أن الأخ الشقيق، بنتاً أو صبياً، أغلى وأجمل ما يمكن أن يحصل عليه إنسان..

نظرت ملياً إلى الدب الصغير المعلق على المرآة، يهتّز بعنف، ينظر إلي تارة، وإلى الطريق المتعرّج تارة أخرى..

تقابلني نظرات السائق الخاطفة، يطفو صوته الدقيق فوق صوت اللحن الرديء الذي يطلقه المذياع..

– أقل من ساعة ونصل..

تأخذنا المنعطفات الضيقة المتلاحقة، تنساب الطريق على حافّة حادّة بين جبل درزته الخضرة حتى القمّة، وواد سحيق بعيد مفروشة عتباته بألوان زاهية.. خضراء وبنيّة.. صفراء وحمراء.. تتخللها قطعان تتحرك بكسل.. وبيوت متناثرة بينها، تلفظ سحابات دخان باهتة تحمل روائح فيّاضة..

هي الصورة ذاتها التي حملت خطواتنا منذ زمن بعيد.. بعد رحلة لجوء مّر اقتلعتنا بقسوة من يافا إلى عكا إلى الغازّية إلى حمص ثم إلى الزبداني ببهائها وجمالها، قابعة بأنفة على سفح الجانب الآخر من الجبل الأخضر..

نحمل بين أيدينا نحن الثلاثة حصصنا المتساوية.. نصف رغيف وقطعة صغيرة من الجبن، وجبة طعام خفيفة نتناولها بين الظهيرة والمساء يسمّونها "العصرونية"..

نخرج بها إلى الفضاء المفتوح، نتمشّى إلى جانب جدول ماء، ولأن أخي الأوسط لم يحسب الأمر بدقّة، فقد التهم قطعة الجبن ولم يجد بين يديه غير شريحة خبز جافّة..

راقب بحسرة قطعة الجبن خاصتي، ما زالت كبيرة.. ناضل بشتى الوسائل للحصول عليها أو على جزء منها.. لكنني رفضت بإصرار وعناد.

ألح أكثر، ورفضت أكثر.. تفاقم الأمر بيننا، ولم يجد بدّاً من التقدّم صوبي، معتمداً على قوته البدنية فهو يكبرني بسنتين، لانتزاع قطعة الجبن عنوة.. فهربت..

ولحظة أحسست أنه سيدركني لا محالة، لم أدر كيف رميت قطعة الجبن برمتها في الجدول مما أثاره إلى أقصى الحدود.. التقط حجراً ورماني.. أصابني على جانب وجهي الأيسر.. ارتطم وجهي على حجر مدبب في سور حجارة، لينفتح جرح عميق في خدّي الأيمن، لم تلبث الدماء التي نزفت منه أن غطت وجهي وثيابي..

انقلب الموقف.. وضع غسّان خرقة على الجرح النازف وضغط عليه بكل قوته، وانطلقنا ثلاثتنا إلى الصيدلية الوحيدة في القرية ليتبرع الصيدلي بتنظيف الجرح وقطبه خمس غرزات بعد أن ثبّتني على كرسي، وقام بعمله مستخدماً أدوات بدائية ودون تخدير..

كان همّنا الأول أن لا يعلم والدي بالأمر، أو بأنه على أقل تقدير لم يحصل على الوجه الذي حصل.. نعلم أننا سننال العقاب الصارم..

تطوّع غسّان لإنقاذ الموقف..

اتفقنا على أننا تعرّضنا فجأة للتواجد بين فريقين من الفتيان يتراشقون بالحجارة، وهو تقليد طبيعي يتكرر حدوثه بين فتيان الحارة الشرقية والغربية بين الحين والحين..

ولأننا مؤدبون ومن أسرة كريمة لم ندرك حجم الخطر الداهم.. وعلى حين غرّة أصاب حجر طائش وجهي..

والدي رجل منصف.! يأخذ حقه ويعترف بحقوق الآخرين. تقدم بشكوى عاجلة إلى مخفر البلدة..

أثناء التحقيق، ولأن غسّان أكبرنا، "لم يكن تجاوز الثانية عشرة بعد" ولأننا على اتفاق أننا فوجئنا ولم ندر كيف حدث ما حدث.. تطوّع للإجابة..

كان المحقق صارماً. أراد أن يتابع بذكاء أدق التفاصيل للوصول إلى الحقيقة.. مما فرض على غسّان أن يقدم وصفاً مفصّلاً ودقيقاً.. وصف المكان الذي يفترض أن يكون ميدان القتال بين الفريقين.. أشار باستفاضة إلى مجموعات الفتيان من كلا الجانبين.. الأشكال والملابس والعلامات الفارقة لكل واحد منهم، ما كان على الرؤوس وبين الأيدي، أشكال الحجارة وأنواع المقذوفات.. طريقة الهرب بعد وقوع الحادث.. الخ.. كل ذلك بوصف دقيق كأنه يقرأ من لوحة مرسومة أمامه..

وقد أصرّ المحقق على الوصول إلى الحقيقة.. طلب من غسان إعادة سرد القصة أكثر من مرة.. وكان يكرر في كل مرة القصة، حرفاً بحرف، دون زيادة ولا نقصان..

في الأيام القليلة التالية كنت أنا وغسّان نتقاسم قطعة الجبن حصّة شقيقي الأوسط، يتنازل عنها على سبيل الرشوة فيما بيننا، ونحسّ بشيء من التلذذ ونحن نراقبه يتناول الخبز وحده، يتبع وراء كل لقمة جرعة ماء..

بعد أيام لم أستطع مواصلة الصمود..

اعترفت لوالدي بالحقيقة.. نلنا ثلاثتنا كالعادة حظنا الوافر من العقاب، وحرمنا لأيام كثيرة من تناول "العصرونية.."

ما زال الدب الصغير يحدق في وجهي.. ويبتسم..

نعود مساءً حفاة عراة من شاطئ بحر يافا إلى بيتنا القريب المستلقي في حي المنشية بعد ساعة السباحة اليومية المدرجة على جدول نظام صارم يضعه والدي بترتيب دقيق لحركتنا اليومية. ندخل الحمّام لنغتسل بالماء الحلو.. تغطس أجسادنا الصغيرة في الحوض الكبير، نسبح ونتدافع، ولحظة يرفع أحدنا رأسه فجأة يصطدم بالحنفية البارزة.. ينفتق جرح جديد.. وننال العقاب..

تزداد حركة السيارات كلما اقتربنا من بيروت..

فجأة يصافحنا البحر..

لآول مرة يسكت المذياع، وتتوقف حركة الدب الصغير المبتسم.. ولأول مرة أفقد لون البحر الأزرق..

التفت السائق، قال بصوت خفيض وهو ينعطف إلى اليمين:

– "الحازمية.."

في اللحظة نفسها رأيت غسّان..

في ساحة بيت يميس بين الورود والزهور، وعبق الكبّاد والنارنج، يحتل مكاناً أثيراً في حي القنوات بدمشق، تتحدث جدرانه المزخرفة والمعشّقة والملوّنة عن عظمة دمشق وتاريخها.

يجلس على كرسي مرتفع، يحرص "فخري بيك البارودي" أن يحمله إليه بنفسه..

فتى نحيل أشقر، شعره مجعّد، عيناه تشعّان ذكاءً، يمسك بين يديه سنوات عمره التي لم تتجاوز الرابعة عشرة، وكتاباً يقرأ منه.. بين جمهور من الأدباء والفنانين والسياسيين ينصتون باهتمام واستحسان إلى قراءته السليمة المؤثرة التي يضيف عليها صوته الصافي مسحات رائقة تزيدها بهاءً وجمالاً..

نراقبه من فرجة الباب بشغف، تنتهي الجلسة اليومية.. ليعلن "فخري البارودي" كما في كل ليلة:

– إن هذا الفتى سيصير إلى شأن عظيم...

تتوقف السيارة..

ترتجف أطرافي المتحفّزة، أتلهّف لاستقبال مفاجأة الكذبة.. أتوسل أن تتـــدحرج أمـــامي علـــى مســـاحة الأفق...

يمسك السائق يدي..

يفرد أمام خطواتي المضطربة حزنه المسفوح على حصيرة من شفقة..

يقودني عبر الحطام والدمار.

يصل بي إلى حافّة واد عميق الغور. فيه رجال يلتقطون عن الأغصان قطع لحم صغيرة، يجمعونها في كيس أبيض..

في الزاوية الأخرى رأيت وجه غسّان ونصف صدره..

ورأيت شيئاً متفحّماً يشبه الصّبية الجميلة لميس..

كان يبتسم، صافحني وهو يبتسم..

وكأنه تحسّس بأصابعه النحيلة أثر الجرح الطافي على صفحة خدي الأيمن..

رأيت الدب الصغير، ثابتاً صامتاً حزيناً..

رأيته يبكي..

فبكيت..

قبـــــور الغـــــرباء

أسير مع عشرة رجال فقط، صامتين وراء نعش ثقيل محمول على الأكتاف..

بيننا ذلك الرجل الغريب الأشيب، لا أعرفه ولم أره من قبل، يبدو حزيناً، منكسراً، يطوي رأســـه بـــين كتفيه، ويتمتم بكلمات لا يسمعها أحد..

يتقدمنا المختار عبد القادر، يعقد ذراعيه خلف ظهره، وينفخ ضيقاً بين الفينة والفينة..

يكمل احمرار وجهه الطافح المكتنز الذي لفحته شمس تمّوز اللاهبة، دائرة لون الطربوش الغامق، يغطي مساحة من صلعته، ينوء بحمل كرشه المدور، المحشور في ثوب طويل، يتوسطه حزام جلدي عريض، يحاول شّد الخطى لينتهي من هذا الأمر بأقصى سرعة..

ما أسخف أن يموت الإنسان على فراشه، ولا يعلم بأمره أحد..

في صباح اليوم الثالث اكتشف المختار "عبد القادر" وشرطيان موت "أم قاسم"..

خبر تناقلته ألسنة سكان الحي عن رائحة كريهة تنبعث من قبو البناء الذي تقيم فيه..

ما أن فتح الباب عنوة، حتى انتشرت رائحة الجثّة المتفسخة..

ولم تقدر عشرات زجاجات العطور التي دلقت من الشرفات، أن تبددها..

عشرة آلاف ليرة ثمن قبر.!

تطوّع سكان الحي جميعاً وسريعاً للمساهمة بجمعها.. كان الأمر الأكثر إلحاحاً، ضرورة الانتهاء من أمر الجثة ودفنها..

لكن المفاجأة الحقيقية تمثّلت حين أعلن المختار بأريحية أنه سيقوم بتسوية الأمر كله بنصف المبلغ..

خمسة آلاف ليرة فقط، شريطة أن لا يكتب لها اسم على شاهدة القبر..

قال بحزن:

– عاشت بيننا مجهولة ووحيدة "مقطوعة من شجرة".. يرحمها الله، وهذا أقل واجـــب عرفـــان نقدمـــه لذكراها..

أخبرني حفّار القبور أن المختار يمتلك عشرة قبور ملكاً خالصاً له.. يؤجر خمسة في كل مرة.. وحتـــى انتهاء مدّة العقد. يخليها من الشواغل، ويؤجر الخمسة الأخرى.. وهكذا..

تملّكتني الدهشة، فسألت باستغراب:

– قبور بالأجرة.؟

فهمت فيما بعد أن المدّة الزمنية لفناء الجثّة في تلك المقبرة، لا تستغرق أكثر من ثماني سنوات..

وهذا أمر يختلف بين مقبرة وأخرى، ومنطقة وأخرى، تخضع لظروف البيئة وحرارة التربة..
وعند انقضاء الأجل يفتح القبر، يلّم العظام المتبقية، ويركنها في زاويته. ينظفه، ويهيئه لاستقبال جثة جديدة... يا اللـــــــــه.!
افتقد حضورها إلى مكتبه ليومين كاملين على غير عادتها، فهي تأتيه كل صباح.. تقف بقامتها الطويلة أمام مكتبه، تصرّ على أن تسميها "الدّكان" وللحقيقة هي كذلك..
تمسك طرف منديلها الأبيض تغطي به نصف وجهها، وتقذف سؤالها التقليدي اليومي:
– عبد القادر.. هل من جديد.؟
يمتلئ غيظاً فهو يدرك أنها تتقصّد ذكر اسمه دون ألقاب.. يرفع حاجبيه بحركة صبيانية، بينما تعبث أصابعه بأوراق مفرودة أمامه على الطاولة، يتمتم:
– مجنونة .! تنتظر أخباراً من "قاسم".. هه..
ثم ينفخ بضيق..
تتمايل بتؤدة، يصافح وجهها المدّور وجوه ناس الحي..
تعرفهم واحداً واحداً، تتحرش بهم، تتحدث إليهم، الصغير والكبير، المرأة والرجل..
تمسك طرف منديلها الأبيض بيد، وتطّوح يدها الأخرى إشارات مختلطة تتابع رسم كلماتها.. تسأل كل واحد منهم عن "قاسم"..
ثم تعطي الوصف الحميم لصورته..
شاب ولا كل الشباب، طويل أسمر مفتول العضلات، حاد القسمات، له شعر أسود غزير، وعينان كأنهما زيتونتان ناضجتان.. طيب، ومخلص، وشهم.. وشجاع..
– حتى أنه يشبهك..
هي الجملة التي تتكرر في كل مرة.. تختم بها رسم صورة "قاسم" أمام أي شاب تتحدث إليه..
يفرد المختار ذراعيه بعصبية:
– يا جماعة.. أم "قاسم".. امرأة مجنونة.!
يضيف الحاج بشير باستهزاء:
– أقسم أن جسدها اليابس لم يلامس جسد رجل..!
ويتابع بسخرية:
– من أين أتت بالأولاد.؟ استغفر الله العظيم..!
هي الأحاديث نفسها.. تدور فصولها كل مساء على ألسنة كبار السن من رجال الحي.. يحتلون باسترخاء وكسل مقاعد الحديقة المتربّعة فوق الملجأ الذي أقامته الحكومة وسط الحي بعد حرب حزيران..

يجمعهم الفراغ، ويخوضون في خصوصيات الناس، ويطلقون الأحكام..
هل كانت مجنونة حقاً..؟
عرفتها منذ زمن، لا تفارق الجلوس على عتبة البناء الذي تقيم في غرفة صغيرة في قبوه، تراقب ما يجري حولها بعيون متحفّزة قلقة، وتعرف الكبير والصغير من سكان الحي..
وتتعرّف إلى الغرباء العابرين منه..
تتحرش بالصغار، تحجز كراتهم إلى حين، ثم لا تلبث أن تعيدها إليهم، تمسك بأحدهم تقرص أذنه برفق، وتربت على كتفه بطيبة وحب..
عرفتها، وأحببتها.. كانت امرأة وحيدة.. طيبة، وقوية..
إذا تحدثت تنضح عيونها الزيتونية بريقاً يشدّك إلى كل الأمكنة المحببة التي تشتهيها، والتي تجد على كل معلم فيه أثراً لها..
وإذا شدّتها أطياف الذكرى، تعود بك إلى زمن حالم ليس كمثله إلا في الحكايات المفرطة في تشكيل الصور المثالية.. وإذا فاض بها الشوق وخاضت في بحر حياتها تسمع سرداً لأحداث غريبة عجيبة..
كان حلم حياتها أن تتزوج وتنجب ثلاثة من الذكور، تسمّي أكبرهم "قاسم" على اسم جدّها..
رفعت منديلها الأبيض تغطي به نصف وجهها، رأيت على صفحة كّف يدها الأخرى، مجموعة من الرسوم الزرقاء، تدور كلما حرّكت يدها تشير إلى جهات بعيدة..
– تزوجت من زينة الشباب.. "أبو قاسم".!.
قبل أن يقضي أبوهم في مكان ما، أوصاها بالأولاد.. قال إنهم وحدهم القادرون على حشد قيمة المكان، وفسحة الزمان، والقادرون على حمايتها من الخوف والمرض والعجز..
تستدرك بحسرة:
– الصغار يكبرون، ويغادرون واحداً إثر الآخر..؟
حَمَلتهم صغاراً وخاضت بهم مجاهل الحياة.. تنقّلت بين أعمال كثيرة آخرها مستخدمة في أحد المستشفيات، وبعد أن تقدمت بالسن، وبدأت تعاني من السمنة وآلام المفاصل، استغنوا عن خدماتها..
– أقسم لي بروح أبيه أنه سيفتّش عن أخويه ويعود بهما إليّ..
وما زالت تنتظر.!
– لو أنه فتّش تحت كل حجارة الأرض.. لكان وجدهم.!
أخرجت صورة باهتة لشاب.. دفعتها أمام وجهي..
– هذا "قاسم"..
أذكر أنني أرسلت رسالة فيها صورة لـ "قاسم" إلى أحد أصدقائي الذين يعملون في ليبيا..

تصورت في ذلك الوقت أن المكان الوحيد المفتوح لعمل الغرباء هو هناك، طلبت إليه أن يبحث عنه.. جاءني الرد سريعاً ومقتضباً:

– صديقي العزيز.. بحثت في كل مكان.. العجيب أن جميع من رأيت من رجال غرباء، يشبهون رجل الصورة.. لكن أحدهم لم يفقد أمه.. ولم يكن "قاسم".!

يتمتم الحاج بشير:

– طردوها من المستشفى.. أمسكوا بها متلّبسة تسرق القطن والشاش وحقن البنسلين وتبيعها للصيدليات..

* * * *

ضبطته ذات يوم يتلصص على جارته من فرجة نافذة ضيّقة.. تسللت بهدوء إلى بيت الجارة وطلبت إليها وضع ستارة مناسبة على نافذة الحمّام..

في اليوم التالي صرخت في وجهه:

– عيب على شيبتك يا بشير..

اقتربتُ منه، سألته هامسا وأنا أشير إلى الرجل الغريب الذي يسير معنا وراء جنازة "أم قاسم":

– تعرفه.؟

نظر إلي بلؤم، وتمتم:

– إنه الرجل نفسه الذي رأيته معها خارج الحي.. رأيته بعيني هاتين يعطيها شيئاً..

سكت لحظة ثم أردف:

– رزمة من المال.. استغفر الله العظيم..!

رمقته بنظرة قاسية، وابتعدت عنه..

هل كانت مجنونة حقاً.؟

مرة واحدة دخلت إلى غرفتها..

رأيت الجدران الرطبة مغطاة بصور مقصوصة من الصحف.. صورة كبيرة لجمال عبد الناصر، وصور أخرى لحسني الزعيم، والملك عبد الله، وأديب الشيشكلي، وشكري القوتلي، وفوزي القاوقجي..

على الجدار المقابل مقتطعات من الصحف أيضاً لم أستطع قراءة محتواها..

وفي صدارة المكان صورة كبيرة ملّونة لمدينة القدس.. وإلى جانبها صورة أخرى لمجموعة من الشباب يرتدون لباساً موحداً ويحملون "بواريد"..

غرفة مرتّبة ونظيفة، يقسمها شرشف أبيض إلى قسمين، قسم كأنه غرفة للنوم، والآخر المطبخ وما فيهما من أثاث بسيط..

يومها قدّمت لي كأساً من الشاي أضافت إليه أوراقاً خضراء جافّة، قالت إنها ميرمية..
تبادلنا أحاديث عامّة، لكنّها أصرّت أن تريني شيئاً..
قامت إلى صندوق في ركن الغرفة وأخرجت منه ثوباً لم أر في حياتي أجمل منه.. مشـــغولاً بـــالإبرة، بخيطان ملوّنة زاهية على أرضية سوداء لامعة..
فردته أمامي وهي تبتسم.. نظرت إليه طويلاً، ثم بدأت تطويه من جديد.. قالت:
– ثوب عرسي.. كانت إحدانا تطرّز ثوب عرسها بيديها.. والشاطرة من تضيف إليه أكثر مجموعة من الألوان..
سكتت لحظة ثم تابعت:
– عندما يأتي "قاسم" سأختار له العروس التي تعجبني، وأهديها..
نظرت إلى فضاء الغرفة الضيّقة وتمتمت:
– يومها فقط أنتهي من قرف عبد القادر، والحاج بشير.. يومها فقط..!
خرجنا من المقبرة فرادى.. المختار يتقدمنا جميعاً يسرع الخطى هارباً من لهيب شـــمس تمّوز.. الرجل الضئيل الأشيب يسير إلى جانبي ببطء..
– تعرفها.؟
سألته برفق..
هّز رأسه بأسى..
– أوصتني أن أسلّم أغراض بيتها إلى ابنها "قاسم" عندما يعود..
قلت وأنا أحاول تحريضه على التحدّث..
نظر طويلاً في وجهي، ثم ابتسم ابتسامة ساخرة.. ولم يقل شيئاً لكنه بقي سائراً إلى جانبي حتى وصـــلنا إلى الحي.. دخل إلى مكتب المختار..
قال باقتضاب:
– أنا من أهل المرحومة..
كان المختار يدرك أن كل ما لديها وما تحتويه غرفتها لا يساوي شيئاً، وهو على عجلة في طلب إخلاء الغرفة ملكه من أية شواغل.. بعد أن انتهى بموتها عقد الإيجار الحقير بينهما.. فأعطاه المفتـــاح علـــى عجل..
للمرة الثانية أدخل غرفتها.. كنت متلهفاً للمس وجودها في المكان الذي ضم بين جدرانه الرطبة أنفاسها وحزنها وانتظارها..
أحسست أنها حفرت في تفاصيل جسدي صورتها التي ستلازمني ما حييت..

جلس الرجل الضئيل على حافة الفراش المفرود على قطع خشبية..
تمتم وهو يجول بعينيه في زوايا المكان:
– مسكينة يا "فاطمة".!
نظرت إليه بلهفه أحّثه على مواصلة الحديث.. تابع باستسلام:
– ما أصعب أن يعيش الإنسان عمراً على أمل انتظار مستحيل..
فتحت عيني دهشة..
كـــأنه ألقى أمامي كيساً فارغاً حسبته دائماً على قدر من الامتلاء..
وقد أدرك حيرتي.. تابع بنزق:
– هدموا بيتها بالجرّافات.. ثم ألقوها وراء الحدود..
لم أصدق، حسبته يتحدث عن امرأة أخرى.!
– نفّذ زوجها مهمة انتحارية على حدود قريتهم المحتلّة، وكان عليها وعلى جدران البيت دفع الثمن..
– جنّت..
– لم تجّن، لكنها لم تصدّق، كان زوجها زينة الشباب، استشهد بعد شهر واحد من زواجهما.!
قبل أن أغادر الغرفة، شدّتني صورة كبيرة معلّقة خلف الباب لم أرها من قبل.. صورة لشـــاب أســـمر، مكتوب تحتها بخط متواضع.. "قاسم"..
لأول وهلة حسبتها صورتي..
ما زالت الصورة معلّقة في بيتي.. وما زال الثوب المطرّز ينتظر جسد صبية تتزين به، وتزهـــو أمـــام شاب بدأت منذ لحظة غياب "أم قاسم" أنتظره أنا الآخر..

الحـــــدود

كلما اقتربت الشمس من ملامسة شغاف الأفق، وراحت تأخذ زينتها لتستحم على الجانب الآخر.
تخلع أشعتها الحادّة، وتلبس شفيفاً برتقالياً يلّون الأرض والسماء والأديم الممتد، ويخلق من صور ظلال الأشياء المتناثرة أطياف أشباح تتراقص أمام عينيه، تطول تارة وتقصر تارة أخرى..
يفرك كفيه بسعادة، ويسيل لعابه على أخاديد ذقنه العريضة، ثم يدغدغ رقيقَ عظمه ولحمه خدر بطيء، ينساب سلساً وعذباً، يداعب شحمة أذنه اليسرى وشرايين عنقه ومسام شفاهه، ويسري إلى كتفيه ويديـــه، ثم يعمل متناغماً مع نبضات قلبه، يرجفها أكثر، فترتاح على وسادة الخدر اللذيذ..
وما أن تتدفق إلى ركبتيه حتى تقعده، فيتوسد الأديم.
يرحل مع ناظريه في رحلة أثيرة، تختلط خلالها رحابة فضاء ثري بألوان الطيف، تتداخل مع امتـــداد لا يتوقف لسهل تعشّق كل الجمال والسحر.
تراكضت وروده وزهوره، حشائشه وأشجاره، تربته وصخوره في مزيج قزحي متداخل، تارة مع لمسات الشفق الأول، وتارة مع الهزيع الأخير، ودائماً مع تدفق غني لينابيع ثرّة متناثرة هنا وهناك كدرر متلألئة في روضة ليس لها شبيه..
– نايف الرملاوي.. حكمت عليك المحكمة بالإعدام.!
تساقطت في اللحظة نفسها صيحات متقطعة مزقت سكون المكان رددت..
– البطل قتل الخائن.. الله أكبر، الله أكبر..
يتوسد أول التراب المنفلق في المكان تحت قدميه العاريتين، تلمسه رعشة من قمة الرأس وحتى دقـــائق الأطراف فيدخل سحراً في حلم عميق، ما زال يرسم ملامحه كل ليلة وصباح، فوق العيون والأهـــداب، يجري ويجري، ولا يستقر حتى يصطدم بسفح الجبل البعيد..
عندها يهدأ، يغرب في مجاهل فجوة كأنها نقطة التلاقي الأسطورية بين سقف الدنيا وحدود الأرض..
الأرض نفسها التي حملت بقرف لسنوات طوال دقات خطواته، لكنها أبت أن تقبل همسات أحلامه..
منها تبدأ إرهاصات عالم قديم..
كأنها تغيّب وراء ظلالها المختلطة ساحة اختصرت داخل حدودها طيف "سلمى".!
عيونُها، صفاؤها، حبُها المقطّر على تضاريس وجنات، نحتت فوقها ابتسامات لا تفتر، قدّها الممشـــوق المعبأ في ثوب موشى بحلم قرية وادعة..
أسبغت على مفاصل خيوطه من فيض عنفوانها، شعائر الأحمر والأخضر والأبيض.!

صبيّة نبتت وسط ضجيج الناس، ووسط صمتهم المطبق على جدران قاعة فسيحة مضحكة، نبتت كسيف قاطع بتّار، لكنه كامن في جراب حصين، لفارس يعيش في قلب الحدث، ينتصب في كل حين، يطـــاول هامات الرجال، ويركض بين حوافر الخيل، يسبق الزمن الصدئ يصرخ في الفضاء الرحيب..

أيها المهزوم خوفاً وظلماً وبلاهة.. تقف مخبولاً تضحك خلف قضبان تتهمّك وتحكم عليك..

ثم يزحف الصمت، يطوي ضحكات نايف البلهاء المتقاطرة نزولاً فوق صفحة وجهه الطويل، تحتل فيضاً من عينين ضيقتين مدهوشتين كأنهما خلقتا كذلك تحت حاجبين باهتين، رصعت جبهته العريضة ثنيـــات ارتسمت بفوضى على مرمى رأسه الأصلع المنتهي بأذنين فاغرتين كبيرتين، كل ذلك حول فم ينفرج عن أسنان متفاوتة الطول والعرض وشفاه غليظة مشققة..

يتشبث بأصابعه، يطبق على نهايات القضبان الباردة، يزحف ثوبه المخطط على أطراف قدميه العاريتين، يقفز ويتقافز عليهما يطاول صورة مجنونة لأحداث غريبة ملأت فضاء القاعة الرحبة، وأطّـــرت حـــزن الناس وترقبهم وفضولهم..

كان يضحك، يحسب أن الجموع جاءت لتزف إليه الفرح الذي لم يفارق أفق حياته منذ سلبته الحمى نعمة العقل..

وحدها "سلمى" أيقنت بحس الحزن الفطري، أن الأمر برمته انقضّ على رأسه الأبله، وأنـــه ســـيدقّ لا محالة على صليب جديد، انتصب في القاعة ما بين المنصّة والباب العريض..

صَرَخت، مزّق صهيل صوتها المجبول بغصّة ذبيحة وجوهاً حمراء، وعيوناً زرقاً، وسميناً أشقراً يطوي الأوراق، ويدفن لهاث كلماته الأخيرة:

– ترفع الأوراق إلى سعادة المندوب السامي للتصديق على الحكم..

ضاع كل شيء، وحَمل الأبله وحده وزر الأمّة..

تَعرفهُ.! نبتا في قرية واحدة، في حي واحد، في بيتين متجاورين، في قلـــب ســـاحة رعـــت وشوشـــات أقدامهما النحيلة وحلمهما الطفولي..

يوم انقضّت على رأسه الحمى، كانت أول فجيعة تعيشها، وبقيت رفيقته الأثيرة وصديقته العذبة..

تحمل بصبر أحرفه المتقطعة، وتربطها في كلمات وجمل، تصير سرداً مشوقاً لشيء أكبر من ترّهـــات عقل مهزوز أتلفته حمى خلفت وراءها أنقاض إنسان فقد كل شيء إلا نبضات حب تفتّح في فناء ســـاحة خلفية لبيتين متجاورين، زُرِعت في صباح يوم حزين حجارةً وإسمنتاً وجدراناً ارتفعت وارتفعـــت ثـــم التهمت بنهم مجنون الفضاء والفناء وحبيبات الذكرى..

سرت في القرية إشاعة بدأ دبيبها همساً ما لبث أن تدفق صراخاً.. قالوا:

– نايف الرملاوي.. قتل الخائن الذي باع ما لا يملك، لغرباء لا يستحقون.!

فجأة ينفلق المكان بين قدميه، على بقعة من تراب، تفسح لنفسها مكاناً بين بدائع النباتات التي يزخر بها السهل المترامي..

زعتر برّي هنا، خبيز وشيح هناك، وسيقان نرجس تأبى إلا أن تنتصب بلون الفستق، تحمل زهرات يانعة زاهية، وعطراً نفّاذاً، تكّرس فعل حركة يلون الأخضر المديد بألوان الحياة وصخبها وضجيجها.

ينساب على إثرها السهل ممتداً على تلك الشاكلة، حتى اصطدامه بسفح الجبل البعيد، يتوقف تماماً عند الفجوة الباهتة، يتسرّب من خلالها بصيص نور يكشف عن عالم آخر ما زال حياً، تخفيه وراءها...

هناك تقف "سلمى".!

فوق اتساع أفقه، يملأ طيفها الدافئ ساحة خلفية، تنتظره فيها كل يوم كل ليلة، تمد يديها فيخفق ثوبها المطّرز كأنه علم على سارية..

قال له (عثمان الورد):

– إلى هنا فقط.. إذا تقدمت أكثر.. تموت.!

وقعت الحرب كما يقع كيس طحين من سيارة مسرعة، يتمزق ويتناثر ما فيه، يضيف إلى لون التراب القاتم بشرة بيضاء ملساء تطفو على الحزن والموت..

كان الوقت مساءً والعسكر يمضون به إلى السجن عندما انشطر المكان، وتساقطت القذائف والقنابل كأشباح مرعبة أفلتت من سقف جهنم، خَلطت الناس في لحظات، كل الناس.. وأفزعت حتى الأطفال والعجائز، وانتشلتهم من أسرّتهم الدافئة..

حملته هبّة الريح العاتية بين أقدامهم، وألقته في مكان بعيد، نقلته دفعة واحدة إلى عالم جديد..

مخبولُ –كما كان– وتائهُ في أزقّة وحارات مجهولة، تلاحقه كل وقت لعنات الكبار وتقززهم، وهتافات الصغار وسخريتهم:

– نايف الأهبل.. نايف الأهبل..

فيحمل نهايات ثوبه المخطط ويقفز كالقطا..

يشد خطاه هرباً قدر ما يستطيع، يبحث عن "سلمى" فلا يجد إلا فراغ الزواريب الضيقة تنقذه إلى حين، لتمسك به المساحات المفتوحة..

يقف، يستنهض شجاعة مترسّبة في أعماق صدره، يصطنع المهاجمة لحظة لا تزيد، يرتد بعدها ويعاود الهرب..

يصطدم بصدر (عثمان الورد).. فيحتضنه، ينقذه ويطرد الصغار من حوله ويأخذه إلى داره..

كما كانت تفعل "سلمى".. يسقيه كوباً من الشاي المحلى ويطعمه..

رافقه في أول مرة، ووصلا إلى أول السهل، في اللحظة التي انفلقت أمامهما بقعة من تراب بين مستعمرات الحشائش..

جلسا.. قال له هامساً:

– إلى هنا فقط، إذا تقدمت خطوة أخرى تموت.. من هنا فقط يمكنك أن تشاهد الفجوة، هي تلك البعيدة على سفح الجبل المقابل، هناك الحدود وحقول الألغام والأسلاك الشائكة.. أنا أعرف كيف ومتى أدخلها وأعرف كيف أخرج منها، تعلمت من كثرة المراس، التوقيت الدقيق لهذه التحركات الخطيرة، ومتى سنحت أمامي فرصة، آخذك معي إلى هناك..

ومنذ ذلك اليوم، يأتي إلى تلك البقعة، يجلس على الأرض يرنو إلى البعيد، ويحلم..

يوماً بعد يوم تنساب الحروف من بين شفتيه ليّنة أكثر، يركّبها (عثمان) بصبر، ويدرك أن صاحبها ما زال يحلم حتى في ساعات صحوه باختراق فجوة متعتّبة سفح جبل بعيد، يمارس على جانبها الآخر كل الأحلام..

تنتظره "سلمى" في ثوبها المطرز، يعيشان مع أشواقهما المفرودة فوق تراب الساحة الخلفية، أمام قن الدجاج وكبّاس الماء وحبل الغسيل الذي حمل دفقات من حبه..

تغسل ثوبه، وتُجلسه منتظراً جفافه في ركن الساحة، تحت ظلال شجرة البلوط المعمّرة، تطعمه خبزاً مغطى بالسكر تصنعه له خصيصاً، وتسقيه أكواباً كثيرة من الشاي المحلى، وتسمح له بمداعبة الدجاجات..

يرشق شجرة البلوط بالحجارة فتتساقط عليه ثمرات يابسات يجمع بعضها، ويلعبان بها..

تقطع لحظات تأملاته كلمات عثمان الورد..

– إذا تقدمت خطوة أخرى تموت.!

ما معنى أن تموت.؟

وما هو ذلك الموت الذي يصوّره على أنه الغول المرعب الذي لا يجارى..

لم يدرك معنى لكلمة موت.. حتى يوم احتلّت صور عثمان الورد جدران الحي الفقير الذي ينضوي فيه..

كان يلتصق بوجهه الطافح من الصور، ينظر في عينيه الورقيتين طويلاً، يسأله عن "سلمى"..

ولمّا لا يجد الجواب، يقفز بجنون ويضرب كفيه على فخذيه..

ينتقل إلى صورة أخرى، يغرق في تفاصيل الوجه القاسي، ثم يضحك ويضرب على فخذيه..

قالوا.. مات عثمان الورد.!

ترددت ألف مرة على مسامعه..

مات عثمان الورد.

كلمات لم يجد لها في رأسه الأبله أي معنى..
مات عثمان الورد..
رددها ألف مرة أيضاً ولم تعن له شيئاً..
بعد أسابيع كثيرة، أدرك يقيناً أن الموت هو الفراق بعينه..
كلاهما يحتلان الآن ساحة خلفية تمتد على مساحة الفراغ المخبأ وراء الفجوة..
عندما اقترب المساء، وأخذت الشمس تطوي عباءتها الساطعة، وتفرد على شغاف الأفــق لونــاً جديــداً برتقالياً..
التقط بأسنانه أطراف ثوبه المخطط..
كانت الفجوة قد احتلت مساحة رؤياه، وانتصبت أمامها هذه المرة "سلمى" وإلى جانبها "عثمان" يلوّحان له ويبتسمان..
انطلق يعدو بكل ما أوتي من قوة، يتعثر تارة ويقوم..
يشّد ثوبه ويعاود الانطلاق مباشرة إلى نهاية الأفق، إلى بوابة الحدود والأسلاك وحقول الألغام..
دوى صوت انفجار هّز أرجاء المكان الرحيب..
انحنت نباتات الزعتر والخبيز والشيح، بينما بقيت منتصبة سيقان النرجس الفستقية..
في صباح اليوم التالي، عثرت مجموعة من الرجال، على مزق من ثوب مخطط، ملطّخة باللحم والــدم، متناثرة تغطي مساحة واسعة.. تطل من بينها ذراع صلبة،، تقبض بقوة على العُقــد الشــائكة المدببــة، المزروعة على امتداد الشريط..
سرت في الحي الفقير إشاعة بدأت همساً، لم تلبث أن صارت صياحاً:
– مات نايف الرملاوي.. قتل تماماً على نقطة الحدود..

يوميّات فأر مخلص..

فلسفة حوار الثقافات..

تعلّمتُ أن طرح الشعارات الرنّانة والطنانة في بداية كل خطاب له فعل السحر في عقل وعاطفة المتلقّي، وفي تأجيج حماسته..

من هنا أجد المدخل للتحدث على هذا الأساس عن إشكالية العلاقة الأزلية بيننا وبين القط، عدّونا التقليدي..

ولا تنطلق رغبتي من دافع محدّد أو غاية محدّدة، ولكن مجرد تكرار روتيني في سرد تفاصيل مؤلمة سجلت عبر حقب متلاحقة وطويلة حجم الظلم الذي حاق بنا كجنس يتعرض يومياً للإبادة والافتراس بين مخالب وأنياب القطط، أو بأساليب جهنمية ابتدعها الإنسان..

واستطعنا الصمود عبر مسالك عديدة، أهمها اعتمادنا زيادة النسل والتكاثر غير المشروط، فنحن نمتلك قدرة عالية على الإخصاب والإنجاب، رغم كوننا من أصغر المخلوقات اللبونة..

ولست أخفي أننا نعيش الآن عصر ما قبل التطبيع مع القطط بعد أن أُنهكت، سواء بتناقصها الحاد الملحوظ في الدول الفقيرة لأسباب خفية، وهذا ما يعرّضها لشبح الانقراض.

أو بعدد القطط التي دجّنت في دول أخرى، وفاض بين يديها الرزق، سواءً ما يجنى من حاويات القمامة الزاخرة بألوان وأصناف الأطعمة، وأهمها أطراف وأحشاء الطيور والفراريج التي احتلّت مركز الصدارة في تأمين الغذاء للإنسان، وبالتالي لمن حوله، أو في الأطعمة المعلّبة في عبوات أنيقة، المصنّعة خصيصاً..

وعلى هذا فلم يعد من اللائق أن يشاهد قط ما يطارد فأراً عبر المجارير أو بين الأنقاض، ليقتله ثم يفترسه..

وهذا ما يتنافى مع رقّة مشاعر الإنسان المتحضّر، ناهيك عن دور جمعيات حقوق الحيوان والرفق به، مما أبعد عنا رعب الافتراس بعد القتل، ليقتصر الأمر على القتل فقط، إذا دعت الحاجة..

ولابد لي هنا أن أسجل دور الإعلام ووسائله المختلفة التي ساهمت في إرساء هذا الشعور في نفوسنا، واستطاعت اختراق عالمنا والدخول إلى المناطق المغلقة، وفتحت أعيننا على حقائق لم نكن ندركها..

عرفنا منها أننا لا نعيش وحدنا كجنس في هذا العالم، بل انه يمتلئ بأمثالنا أينما كان، وكل فريق ينتسب إلى مكان تواجده.

فالمواطن الهندي يتبعه فأر هندي، وفي الصين فأر صيني، وهذا ما أفرز أيضاً درجات ومراتب في سلم التقسيمات الاجتماعية والطبقية، فالفأر الإفريقي مثلاً أشد فقراً من الفأر الكندي، وبالتالي أكثر تخلّفاً، وهكذا.

وحتى لا يشطح بكم الخيال بعيداً، أقول بأنني فأر بسيط وعادي، أعيش في مناطق مختلفة ومتعددة تنحصر دائماً في الجنوب والشرق حيث يقودني نسبي ورزقي وحاجتي للأمان، ولا أتجاوزهما..

وهذا ما أعزوه لسببين:

أولهما أنني أبتعد قدر ما أستطيع عن البحار والأنهار والمستنقعات، فإن أحد الأمور التي أجهلها بل وأخاف الخوض فيها هو السباحة، وهذا أمر قدري لا يد لي فيه..

والأمر الثاني يتمثل في تلك العلاقة الحميمة التي نشأت بيننا –نحن أبناء الجنس– وبين إنسان المنطقة بشكل ما وبطريقة ما..

فقد حدثّني جدّي عن أجداده، أننا منذ تفتح المعرفة وتدوين التاريخ نعيش مع إنسان المنطقة في مدن كانت عظيمة، ولم يكن لها شبيه خلال تعاقب العصور، وكانت تمتد فوق رقعة شاسعة واسعة ما بين شواطئ بحار، وداخل قريب وبعيد، وكثيراً ما تعرّضت للغزو من أقوام شمالية وغربية، وتعرض أهلها للقتل، وبيوتها ومعالمها للهدم والتدمير المنظّم، وأراضيها لصّب الملح على تربتها وحرثها حتى لا ينبت فيها عود أخضر..

ورغم ذلك كله بقينا على وفائنا ولم نفارقه، كنا نعيش في الجحور، نقتات فتات طعامه، ونتوارى في كنفه، ونتناسل بين ركام نفاياته.. نرافقه في حله وترحاله، رغم إدراكنا لمشاعر التقزز التي يحملها عنا، ورغبته في القضاء علينا..

وكان أن ربطنا بالمطلق مشروعية وجودنا بوجوده..

وهنا أعود مرة أخرى لفضائل التكنولوجيا التي فتحت بصائرنا على أمور لم تلفت انتباهنا فيما مضى، وأدركنا من خلال إعلامها أن فئران الشمال والغرب، حققوا قفزات حضارية خرافية، وأنهم رغم البون الحضاري الشاسع بيننا، يطلقون دعوات حارّة لحوار ثقافي قد يجمعنا على أرضية واحدة. شافعين ذلك بتصوير مذهل لقدراتهم الخارقة وترفهم غير المعقول، وهذا ما أغرى كثيرين للنزوح والهجرة مستفيدين أيضاً من فضائل التكنولوجيا ومعجزاتها في مسألة النقل والتنقل، على متن السفن أو القوارب أو القطارات المعلّقة أو الطائرات، وأحياناً في حقائب المسافرين..

ولست أخفي أنني كنت أحد هؤلاء..

وكان قدري أن أسافر على متن سفينة جبّارة، ما إن صعدت إلى سطحها حتى رأيتها.!

فأذهلتني وأخذت بقلبي وهزّت كل نبض في شراييني..

فأرة ناصعة البياض، لها ذيل لم أر مثله في حياتي، وأذنان دقيقتان مثل شرائح الجبن، وعينان صغيرتان متحفزتان تشعّان بريقاً ودعوة، حول عنقها سلسلة ذهبية وشريطة بلون حبة كرز ناضجة، وحزام جلدي رقيق، تمسك بآخره سيدة شقراء تبدو على قدر من النعمة والثراء..

وفي اللحظة التي تبادلنا فيها نظرات ولهى، أدركت أن حبها ملكني لا محالة، تبعتها إلى كل مكان قيدت إليه، ولم يفتني ملاحظة حرنها المتواصل، ورغبتها في التحرر والانطلاق إلى أحضاني.

وقد انتهزت فرصة سنحت، وقطعت بأسناني الحادّة ذلك الحزام اللعين، وقضينا ساعة من العمر لا تنسى قبل أن تتركني وتعود إلى ترفها السابق..

وضحكت ملء أشداقي، ساعة تصورت دهشة سيدتها لحظة اكتشافها لحملها المفاجئ..

وصلت البر الآخر، ونزلت إلى العالم الذي ملأ خيالي، وسرعان ما رافقت مجموعة من الفئران إلى مكان عميق يبدو كأنه مجارير المدينة..

فيه رأيت العجب..

الطعام في كل مكان والرفاهية في كل ركن وصور (الميكي ماوس، والفأر الخارق، وجيري) الزاهية تغطي الجدران.

وحين سألت عن القطط، انفجر الجميع في الضحك وكأنني قلت عجباً..

أدهشني أنهم يسخرون بل ويتباهون بما يفعله جيري بالقطط، قالوا إن فأرهم الخارق استطاع أن يقلب مقاييس تسلسل القوة.

واستطاع أن يجعل من (توم) الذي يختصر بشخصه عالم القطط المرعب، ألعوبة ساخرة..

ناهيك عن ما يفعله (الميكي ماوس) بولوجه الإيجابي عالم الإنسان أيضاً وقدرته على إنقاذه من أحلك المصائب..

قالوا إنهم يعيشون ديمقراطية حقيقية، يفعلون ما يشاؤون، ويقولون ما يريدون، ويتزاوجون كما يرغبون..

لا يتعرضون لسجون المصائد، ولا للأطعمة المسممة..

أعترف أن عالمهم أذهلني أول الأمر، وجعلني أمتلك إحساساً لم يكن في مفردات حياتي، شعرت أن لي من خلالهم كوننا أبناء جنس واحد شخصية اعتبارية، وأنني أملك ذاتي..

لكنني عرفت بعد أول اللقاءات بيننا على أرضية الحوار أن الوصول إلى هذا الشعور يجب أن ينطلق من تقبّل تصنيف محدد وصارم لا يقبل الاختراق، وهذا التصنيف يقود إلى شرائح اجتماعية..

أولها وهي الأهم والطافية على السطح في كل الأحوال، مجموعة المتنفّذين والآمرين، وبالتالي المتجوّلين دائماً داخل دائرة الضوء ولعل (جيري والميكي ماوس) يمثلان النموذج..

ولابد لي في المسار أن أقول إن هذا الأمر هو أول الشروط المعروضة علينا واجبة التطبيق لتحقيق أرضية مبدئية للحوار، وقد أكون أحد المتمتعين بهذه الميزة الاستثنائية، بمعنى أن أكون أحد الـ 9% الذين يمثلون تلك الشريحة، لا يزيدون ولا ينقصون..

أما الشريحة الثانية، فهي الحاملة الأهم للشريحة الأولى، وصلة الوصل الرئيسة بين فوق وتحت، وهؤلاء على قدر من الأهمية ماداموا في صورة تحقيق الغاية المطلوبة.

هم مساكين أيضاً، ولكنهم على أحسن الأحوال متعيّشون، يمررون مطالب الشريحة الأولى، ويقمعون تطلعات الشريحة التالية، وكان المقترح أن يشكلوا 30% من المجموع..

أما الأكثرية الباقية التي تستقطب 61% فهم الزاد الاستراتيجي لبقاء الشريحتين، بل وإلى نموّهما المطّرد اجتماعياً، وعلى مختلف المستويات..

وقد علمت أن حاجة الإنسان لبني جنسنا أصبحت ملحّة وأساسية في علاقاته ومصالحه، وقد تفوق حاجتنا إليه، على غير الصورة التي نشأنا عليها وأدركناها في مجتمعاتنا الشرقية والجنوبية.

ولا يخفاكم أننا رغم حجومنا الصغيرة إلا أننا نملك (بيولوجياً) أجهزة هضمية وتنفسية وتناسلية تشبه إلى حد ما يملكه الإنسان.

وهذا ما يفرض حاجته الماسّة لنوعنا، سواء لتدريب الناشئة عملياً على دروس التشريح، أو لمختبرات التجارب المصنّعة للأدوية والعقارات، أو لتجارب صناعة السلاح الكيماوي والبيولوجي والإشعاعي وتأثير ذلك لاحقاً على الأمم والشعوب.

أو لدراسات تبديل النظم الوراثية وعلم الأجّنة، أو لتطوير فيروسات حاملة لأمراض مميتة كالسرطان والإيدز وإمكانية نقلها إلى ساحات الصراع هنا وهناك..

وكذلك حاجتهم الماسّة أيضاً لمواصلة برنامج غزو الفضاء، بإرسال نماذج من نوعنا لاكتشاف المجاهل الفضائية أو القطبية، أو ما في باطن الأرض، وأعماق البحار..

وقد اكتشف الإنسان كما الحيوان لّذة طعم لحومنا لكثير من الحيوانات المفترسة التي تزخر بها حدائق الحيوانات المنتشرة، والقابلة للتطور الكيفي والنوعي، وهذا ما يستدعي الحاجة للآلاف من الفئران السمينة والطازجة والحيّة لبعث النشوة في أذواق الحيوانات التي تتمتع بافتراسهم أحياء..

وهذا كله يستوجب استمرار تشجيعهم لنشاطنا الجنسي على مستوى عال..

لكن النتائج جاءت على غير المراد، وانقلبت بشكل لم يكن في الحسبان.

فحياة الترف والبذخ التي تعيشها فئران الشمال والغرب أفرزت فتوراً في رغبتهم بالإخصاب والإنجاب على حد سواء.

وهذا أمر بعث الرعب في أوصال الشريحتين الثانية والأولى، خوفاً من ترشيحهم لدخول معترك حاجة الإنسان الملّحة التي لا تتوقف عجلتها بل تتنامى باستمرار.

ومن هذا المنطلق أساساً وبسببه جاءت الدعوة الحارّة للحوار، فنحن من منظور مخابراتهم النشطة، وتقاريرها الموثّقة، ما نزال بخير، وما زال إنسان المنطقة التي نعيش فيها ينظر إلينا بتقزز، ولا يمتلك المقومات للبدء في إنشاء قاعدة تكنولوجية..

أي أننا نملك الاستعداد لنفض الانتماء..

ونمتلك إضافة لذلك فائضاً عددياً وقدرة مذهلة على الإخصاب والإنجاب، أي أننا نمتلك أيضاً المقومات البيولوجية..

وهذا ما شجّعني في أول اللقاءات التحضيرية أن أطرح إمكانية رفد منطقتنا بقليل من التكنولوجيا تؤهلنا للارتفاع ولو قليلاً إلى مستوى من النديّة، وقد قوبل اقتراحي برفض حازم..

وكي أكون موضوعياً ومنصفاً للحقيقة أعترف، أنني لم أجد لديهم اعتراضاً بل وجدت حماساً على تنصيب رمز يخصنا في الشرق والجنوب على صورة تشبه جيري..

حتى أنهم اقترحوا أن يحمل تسمية تخص المنطقة.. وخيّل إلي أنهم اقترحوا أن أكون أنا شخصياً الممثل لذلك الرمز..

ولست أنكر أن الأمر راق لي بادئ ذي بدء، بل وملأني بالغرور، وبدأت صور المستقبل المترف والمريح تشرق أمامي..

لكنني رومانسي وعاطفي أكثر من المطلوب، عالمياً ومصلحياً..

وقد انبسطت أمامي في اللحظة نفسها صور كثيرة مختلطة ومرعبة..

رأيت أشباحاً يقومون ويقعدون..

كأن أبي وأمي وبعض أجدادي الذين بلغوا من العمر عتيا يتكسّرون تحت أسنان تماسيح هرمة، معروضة في أقفاص مزركشة بألوان برّاقة..

أو يذوبون تحت تأثير فيروس، أو إشعاع جديد..

أو يموتون هكذا في بيوت العجزة والمسنين..

رأيت زوجتي وابنتي وأختي يغتصبهن هرمون الحضّانات، ونطف الاستنساخ..

رأيت أولادي وأحفادي في أقفاص المختبرات، أو في سفن فضائية تسافر ولا ترجع..

رأيت كل ذلك في لحظة على ذيل صورة رمز جديد يخصنا، ففاضت عيناي بدمع محرق..

تعلقت في حقيبة أول مسافر أسمر عائد إلى شرقي وجنوبي الحبيب..

ولأول مرة في حياتي أحسست كم أنا بشوق لرؤية قط يطاردني..

وعـــاد النـــورس

ثلاثون سنة.! كأنني أقفز فوقها الآن..

أكاد أعلّب في حافلة طويلة لونها فضي، ونوافذها ضيقة. تحمـــل علـــى جناحهـــا الطويل، كتابة زرقاء أنيقة (عبر الصحراء)..

ألّوح بيديّ لمظاهرة من المودعين.. أمي أبي أخوتي ورتل طويل من الأقارب..

وهي تقف وراءهم في مكان بعيد، تلوّح لي بمنديل أبيض يلامس أطراف شالها الأخضر، فأوزع كفـــي الملوّحة عليهم جميعاً..

يأخذني المقعد الوثير، في اللحظة التي تلسعني دموع أمي بآخر سوط قاتلت كي ألقيه بعيداً أمام طمـــوح مجهول..

رحلة عبر رمال الصحراء الصفراء.

عشرون ساعة أو تزيد ولا شيء إلا الفراغ، يحشو حلماً تبخر بعد ثلاثين سنة، وتقزّم إلـــى زمـــن لـــم يتجاوز الساعتين، يوم اقتلعوني وأدخلوني في أجنحة عملاقة، قذفتني إلى عتبة ما زالت تحبو إلى أمـــل سيبدأ الآن من جديد..

تلال مغروزة على صدر بادية قاحلة، تقيأ الرمل على صفحتها صفرة باهتة.

تمتد تحتي، تنزف بصاقاً وريقاً جافّاً حامضاً انتزع على مدى ثلاثين سنة جلدة حلقي، وطفا فوقي، يلد كل ساعة رمالاً تطير، تحجب ضوء الشمس، وتطبق على قبة السماء، تغزو الصدور وتتلفها.

طحنتني وصيّرتني قفصاً مجعداً يحمل تفاصيل جسد منهك..

تلال مغروزة على صدر بادية ولدتها صحراء عميقة، تتراكض تحت بصري وتقترب كلما هبطنا إليها، تقترب وتفرد سطوحها، تنبسط على ضفاف أخاديد عميقة وناعمة، كانت مجاري لسيول فيّاضة امتصّتها الرمال وتركتها أثراً بعد عين..

تنبسط أكثر، يخالطها لون أخضر خجول، يغوص مداد اللون الحميم فيها أكثر فأكثر، ليكشف فجأة عـــن جنّة خضراء، غوطة تتماوج بين ثنياتها أشجار الشام الباسقة، وفروع بردى الثرّة.

نحوّم فوقها لحظات..

ولا نلبث أن نحط على أرض مطار دمشق..

حملت حقيبتي الصغيرة، وغرزت خطواتي واحدة بعد الأخرى على إسفلت الطرقات..

لم أجد أحداً في انتظاري، كلهم ذهبوا.!

من خطفته يد المنون، ومن ضيعته خطوب الحياة، ولا أسمع رغم هدير الزحام، إلا صوت حذائي، يحمل الفراغ ويدقّه على الأرض..

* * * *

وحدها كانت زينة المكان، تلوّح بمنديل أبيض، تمسح به لحظة بعد لحظة دمعات تساقطت تلعن الزمن والحلم وبذور الفراق.. قالت:

– لا تسافر.. أعطيك عمري، وأعطيك لمسة أحلامك..

كانت ثرية وتكبرني بعدة سنوات، يومها تعارفنا، كنت شاباً تخرجت من الجامعة أحمل اختصاصاً في علوم التاريخ، تصوّرت أن الدنيا تفتح أبوابها لتستقبل نبوغي، ومع كل يوم راح يمضي يتقلص الحلم أكثر، يصير التاريخ الذي عبأني وأسدل حولي ملاءة انتماء شديدة التعقيد، قيداً يعض على أطرافي، يكبّلني، يشدّني إلى القاع..

بحثت بجهد أكثر وصبر أكثر فلم أجد إلا بصيصاً يطل علي من وراء الحدود، قلت علي أن ألهث خلف الأولين، أقطف مثلما يقطفون، وأحمل في كل ترحال وإياب الهدايا، ورنات الدنانير..

في تلك اللحظة رأيتها، تميس بقوامها الممشوق بين اللوحات والمخطوطات التي زخر بها معرض لمجموعة من الشباب..

في تلك اللحظة أيضاً تسلقتُ حدود ذاتي، ونفضتُ رسماً صنعته لنفسي، وتعلقت حتى أطراف أهدابي على سحر خفي يطل من عينيها السوداوين..

كانت رائعة تلك التي أنستني بلحظة لا تزيد، حزني وحقدي..

عفاف.. وينحدر صوتي، يتسرب في شقوق الطرقات التي دققنا عليها خطانا، ينساب رائقاً صافياً، يعطّر أطراف الاسم الذي ملك عمري..

عفاف.. تلتصق على صدري، تداعبني خصلات شعرها الأسود الفاحم المعقوص في شريطة حمراء، تسفح على جبهتي فيض أنوثتها، وتعبئ في أطرافي عطرها المسكر..

تسألني في لحظة شوق من أنت.؟ فيضيع الجواب عن لساني، أحسبها خنجراً جاء من بعيد ليغرز في صدري سمّه القاتل، يضيف إلى قائمة المجهولين اسماً لرجل يحمل قضية..

قلت لها أول اسم تدحرج من ذاكرتي، فابتسمت، قالت:

أنت من تكون.. أحبك.. فملكتني..

* * * *

عبرت الشارع العريض، لمست براحتي سور الحديقة المدبب، فوجدته قاسياً مثل يدي، جافاً مثل العروق النافرة من أصابعي.. تركت الحقيبة تسقط، وتخطيت البوابة، تهالكت على أول المقاعد، فجلست إلى جانبي.. عبأنا الصمت ساعة، ثم لهثتُ من جديد..

أسافر إلى الضفة الأخرى.!

صور لي غروري أن سيلاً من الدموع سيضمخ وجنتيها لكنها لم تفعل، قالت كلاماً غريباً عجيباً..

تحدثت عن التاريخ، عن الأيام التي تكتب التاريخ، قالت:

إن شيئاً ما لابد أن يكون على خطأ.!

هذا العبور المجنون بين الحلم والواقع، هذا البطلان الذي يغلف سبل الحياة، ويلون اسودادها القاتم بشال حريري أخضر، ومنديل أبيض انتصبا هكذا في لحظة أمل.. قالت:

أنت من تكون، أحبك.. أعطيك عمري، كل أحلامك تصير في لحظة تقول فيها نعم بين يديك..

في الشارع البعيد، أقبل المساء صافياً، والطرقات تقود الخطى كيف تشاء، شعرها الأسود يتعربش على كتفي ويدها تطوقني..

تتراكض الأشجار من حولنا مثل فراشات تعبث بأجنحتها الطرية ريح خماسينية، يأخذها الجنوب لحظة، ويسحبها الشرق لحظات. وحدها أقدامنا تسربت بنا إلى علبة ليل..

الأضواء خافتة وعبق العطور يصدح فوق موسيقى غربية هادئة، تضيف إلى المزاريب الملتفة حول الطاولات أنيناً شبقاً يدغدغ أطراف الأصابع ويلقي بنا على مقعد مزدوج وثير..

تهمس في إذني:

لا تسافر.. إبق معي، نعش معاً، إلى أن نموت معاً.!

تتراقص الأحرف بين أسناني.!

تسافرين معي.؟ نحقق المعادلة الصعبة..

فتبتسم، تقترب مني أكثر، تكّز على أسنانها:

يا حبيبي.. ذكر النورس يسافر ويعود، أما إذا غادرت أنثاه عشها ليوم واحد، يحتله طائر جديد..

كانت ثرية، وتكبرني بعدة سنوات، ذكية وجميلة، رأيتها كذلك، أجمل من خيالات ألف أنثى تقفز في صدر مراهق.. قالت:

نتزوج ونعيش..

لم أجرؤ، قبضت على لساني مجموعة هائلة من اللاءات، ورغم ذلك لم أجرؤ..

* * * *

اصطدمت أصابعي بالمسمار البارز من ظهر المقعد، ما زال كما كان منذ ثلاثين سنة.
شجرة الصفصاف، نافورة الماء ترسل رذاذاً يتطاير إلى كل مكان، تستقبله وجوهنا المشطورة بألم الرغبة المستحيلة فننتعش، نقوم إلى مقعد آخر أمام البركة الضحلة، أطفال ينثرون فتات خبز إلى قبيلة من البط تسبح هنا ويستقر بعضها هناك، يلهث فحل وراء قطعة تكاد تغوص، يغطس إليها.! ثم يتنازل عنها إلى أخرى.!
زوجته، أحد أبنائه، لم يعد المكان يسمح بالتمييز بين الأنواع..
تنظر إلي وتبتسم..
تطير من حولنا وريقات المرجان والتمر حنّة، تظللنا شجرة نخيل عقيم وحيدة تتوسط بألق مجموعة من أشجار الصنوبر الفضفاضة، تنثر في كل حين ثمارها اليابسة بصمت فوق رمل لونته برتقالة المساء بلون حميم، يقرعّني، يهمس في إذني:
إنها إلى جانبك، يلامس فخذها ركبتيك، وتجول أصابعها الهفهافة بين طيّات حزنك المقيم..
على زاوية الشارع الثاني بيتها، تطل شرفتها الساكنة تحت عريشة ياسمين على مفارق شوارع عدة.
تحمل مع ما تحمل إبريق فخّار يتوسد الإفريز، يراقبني كلما أتيت وياديها، فتقفز الدرجات، تصل إلى الفسحة الأخيرة، يستقبلها صدري..
عفاف.. بعد رسالتي الرابعة، أخذتني رنّات الدنانير، وربطات العنق والسيارات الفاخرة، وبين هؤلاء تنافست الأيام فيما بينها وراحت تتدحرج كالكرات، تسوق معها الأشهر والسنوات..
ثلاثون سنة.!
أعترف أنني لم أكن صادقاً، ولم أكن مخلصاً، وحين قذفتني أجنحة عملاقة أنا وحقيبة حقيرة كل ما تحتويه ملابس داخلية وحذاء.. صحوت من غفلة مديدة.!
لم تتبدل الأشياء أمامي إلا قليلاً..
بائع الصحف القديم المتعتب بوابة الحديقة تبدلت واجهته عشرات الصور الملونة لأفخاذ ونهود وشفاه مكتنزة ليس فيها إلا دعوات مجنونة، وأكداس من أطعمة الأطفال الرخيصة..
ارتفعت الأرصفة قليلاً، وانتصبت جسور، وثقبت أنفاق، وتلونت زوايا الشوارع بخطوط بيضاء عريضة لا يكترث بها أحد..

* * * *

وحدي على مقعد الحديقة.. تداعب أصابعي الفراغ.
وتنّز أقدامي على رمل المساء خيبة ليس لها مثيل..
لو كانت إلى جانبي..!
أعرف أنها هناك، على مرمى شارع واحد، في بيتها المطل على غابة من الصنوبر تشدني لأبقى، فأهرب..
أعترف أنني لم أكن مخلصاً ولم أكن صادقاً..
أحببتها. لكنني أحببت في المقابل أشياء أخرى، رأيتها أكثر أهمية، وقبل أن أصحو من دوامة الأحلام السخيفة حاسبتني نفسي..
أيها المتشرد، بلا زوجة ولا ولد، ليس لك إلا ستّون سنة فارغة، وحقيبة خفيفة تزداد ثقلاً كلما طال بك المسير، ولا تعرف إلى أين.؟
يخزني المسمار البارز من ظهر المقعد، تسري في أطرافي رعشة خفيفة، تهزنّي أكثر وتدعوني إليها..
تحملني حقيبتي هذه المرة، ويطويني غروري تحت إبط وعرق سفوح كثيرة لم تعد على ذات القدر من الأهمية..
تتلمّس أصابعي حجارة الأبنية المتلاصقة، وأسوار الحدائق التي بدت أكثر مناعة من قبل.
يمسكني رصيف ويتركني آخر، وتتزاحم جذوع الأشجار بين خطواتي، تغلق أمامي مساحة الدروب.
أقتلع خطواتي المتعبة على المنعطف الأخير، أرى صورتي ملتصقة على زجاج طويل.. شيبي يئن، وسنوات عمري الستين تسخر مني، تسألني.!
إلى أين تمضي.؟
فأصمد..
أفتقد إبريق الفخار، ويصفعني عويل عريشة الياسمين المحنّطة، أحمل أعضائي، وأنصت إلى وقع خطواتي على الدرج الرخامي واحدة اثنتان عشرة...
يطل علّي الباب المصفّح بلون بني غامق، تمتد سلاميات أصابعي تطرق الخشب طرقات ما زالت تحمل شجوني وغروري وصبوتي..
لحظات وينفرج الباب..!
صبي ما زال بعمر نبتة الدادا التي سمعت وشوشاتنا المجنونة، ثم سخرت منا وهي تطرح ورودها الزهرية. تفاجؤنا في الصباح التالي بذبولها المتعّمد..

تلعثمت واصطكت أسناني، أحسست بعرق بارد ينزلق على كفّي، يكاد يفلت الحقيبة من يدي..

– عفاف..؟

ينظر في وجهي طويلاً، يشاغل حيرته بضرب ضلفة الباب بمقدمة قدمه النحيلة، ثم يبتسم بصفاء:

– عفاف.؟ لا يوجد أحد بهذا الاسم..!

– لكنها مثلك تحب مزيج الألوان التي ترتديها..

ينفتل إلى الداخل.. يلطمني صوته الدقيق:

– ستي، ستي.. رجل عجوز يسأل عن واحدة اسمها عفاف..

أسمع رتابة تتابع طرقات ثلاث على مسافة قريبة..

أغرز وجهي في الأرض، وأنزل الدرجات الرخامية التي بدت لامعة برّاقة..

يتابعني صوت خفيض، مقلوع من قاع ثلاثين سنة..

– أنا عفاف..!

وحين أواصل صمتي وهبوطي، تردد بإصرار أكثر يسابق خيبة خطواتي:

– أنا عفاف..!

ناضلت بكل ما تبقى في محاجري من قوة كي لا أرفع ناظري.. كانت قدماي تداعب برفق رخامات الدرج، أناضل كي أرى في بريقها صبيّة، تقف دائماً وراء صفوف المودعين..

تلوح بمنديل أبيض يلامس شفيف شال أخضر، يتعانقان مع شريطة حمراء تتوسط شلال شعرها الأسود..

تلقفني الشارع..

وأخذني بعيداً المنعطف الأخير..

وجوه لا تنسى

تطاول برأسه فوق أكتاف الرجال المحيطين به، يحاول جاهداً أن يتبين من خلال نافذة صندوق سيّارة (الجيب) المغلقة التي تحملهم، أين تمضي بهم.؟

حدّق بإصرار عبر نظارته السميكة، تراكضت حوله أبنية كثيرة، واستطاع أن يميّز بوضوح امتداد خط أبيض ينصّف الشارع العريض..

ضجيج سيارات، وزحمة ناس.. ووجه فاطمة.!

تشدّ منديلها الأبيض وتركض، تتعثّر بثوبها الطويل المزركش بالأحمر والأخضر إلى جانب السيارة..

تارة تنوء بحمل ما في بطنها، وتارة تقاتل أذرع المدّججين بأسلحة فولاذية لتصل إليه، وتناوله كنزة الصوف وبعض أقراص الكعك، ولن تنسى أن تدّس أدويته الضرورية، قطرة العيون (وكبسولات) ضبط ضغط الدم الذي عانى من ارتفاعه منذ مدّة ليست قصيرة، وعليه أن يتناول بانتظام في كل صباح قرصاً منها، وأن يواظب على تقطير عينيه قطرتين لكل عين ثلاث مرات في اليوم، فقد أوشك "كما قال طبيب الوكالة" أن يفقد بصره..

فاطمة.!

لاشكّ أنه تخيّل صورتها.! فهي تدرك أن الأمور تبدّلت..

كانت تعرف فيما مضى وفي كل مرّة تحمله سيارة الجيب أن أمر غيابه سيطول..

لكنّها لا تعرف أنهم يأخذونه في كل مرّة إلى مكان مختلف عن سابقه، ولا تعرف تماماً ما يجري في غرف التحقيق، وسراديب المعتقلات، ولا تعرف أن اسمه يحتل صفحة كاملة في دفتر ضخم، غلافه أحمر، مكتوب على جلدته بخط عريض "الإرهابيون الخطرون".!

ابتسم بسخرية، فاهتزّت نظّارته السميكة المغروزة على قمّة أنفه، ضرب يده على فخذه فانتفض الشاب الجالس قبالته..

رسم على شفتيه ابتسامة حانية.!

ذلك الدفتر الأحمر.!

يجده في كل مكان يساق إليه، ويسمع، صفقات كفّ المحقق، تضرب على جلدته بقوّة قبل أول سؤال يطرح عليه حفظه عن ظهر قلب:

– أين كنت ما بين الساعة كذا وكذا من يوم كذا.؟ ومن يشهد على ذلك.؟ انتبه، لا نقبل شهادة الأقرباء ولا الجيران.!

أغمض عينيه الضعيفتين، واحتفظ متلذذاً بابتسامة لم تفارق شفتيه..

فاطمة..!

لا شك أن الأمر اختلط على كليهما، إذ كيف يخطر على باله أن فاطمة دون سواها هي التي تركض إلى جانب السيّارة.؟ وفي هذا المكان، وهذا الوقت.؟

إنه على يقين أنهم وبعد هذا العمر وما جرى فيه أحسّوا بواجب تكريمه..

انفرجت أساريره أكثر، وراح يبحلق ويقترب برأسه مدقّقاً في وجوه المحمولين معه في صندوق الجيب.. يعرفهم.؟

يحسّ أنه يعرفهم.. الشاب الجالس قبالته بسترته الفضفاضة، ربما استعارها من أحد أصدقائه، هو أيضاً يفعل ذلك غالب الأوقات..

"ابتلع ضحكة كادت تفلت من بين شفتيه" وتشاغل بالتحديق عبر زجاج النافذة الضيّقة، لكنّ عينيه فشلتا في تحديد وجهة انطلاق الجيب..

لم يهتم كثيراً، بل بدا مطمئناً، ومنتشياً..

حدّق مرة أخرى في الوجوه السمراء الشابّة المحيطة به، راسماً أعرض ابتسامة عثر عليها بين تفاصيل وجهه المحفورة بسكاكين الزمن، المليئة أخاديد متقاطعة، نازلة صاعدة تروي ولا تتوقف حكاية تاريخ طويل وحزين..!

إبراهيم الكسواني.. طراز فريد من الرجال.. صلب عنيد ومشاكس..

حتى في أيام طفولته الأولى، استطاع أن يفرض على أسرته ما يريد، ترك المدرسة بعد حصوله على الشهادة الإعدادية مباشرة، وانتسب إلى أحد مراكز التعليم المهني..

تقدّم بالأوراق القليلة المطلوبة. صورة عن شهادته المدرسية، وإقرار بتنازله عن مخصّصاته من الإعاشة، وأن يلتزم بتعليمات ونظام المركز، وأن لا يثير الشغب.. أن يكون باختصار "آدمي"..

وهكذا وجد نفسه طالباً بين طلاّب قسم تعلّم مهنة إصلاح الراديو في مركز التدريب المهني القريب من مدينة القدس.. والذي لا يبعد كثيراً عن قريته "بيت اكسا" القريبة أيضاً ولكن من الجانب الآخر..

ولم يعرف والده بالأمر إلا عشية اليوم الذي حزم فيه متاعه القليل للسفر والإقامة الداخلية..

وبالرغم من اتخاذه القرار الهام الذي يحدّد مستقبله بالكامل منفرداً، ودون استشارة أحد، فقد أحسّ والده بالرضى، أملاً في أن رغبته لتعلّم هذه المهنة الدقيقة لابّد أن تشكل تحوّل في نمط شخصيته العنيفة والمشاكسة، التي سبّبت له ولأسرته الكثير من المتاعب..

تخرّج من المركز بعد سنتين، يحمل شهادة اختصاص، واشتغل عند الحاج جابر صاحب أحد محـــلاّت إصلاح الأدوات الكهربائية في القدس.. القائم مباشرة أول السوق المغطّى والممتد خلف "باب العمود" إلى جانب الجدار الحجري المرتفع الذي يقسم المدينة إلى شطرين..

ولم يستطع صبر المهنة أن يغيّر ما عرف عنه من العناد والمشاكسة، ولو أن هذه الصفات أخذت شكلاً مختلفاً، فقد انضمّ إلى تنظيم فدائي مقاتل، وشارك في حرب حزيران..

ولم تثنه أخبار الهزائم السريعة على كافة الجبهات عن مواصلة القتال على درجة أكبر من الحماسة قادته إلى المشاركة بفاعلية مقاتلاً أيضاً في معركة الكرامة، أصيب خلالها بطلقتين في كتفه وذراعه أعجزتاه عن الحركة، فوقع أسيراً.

ما أن تعافى من جروحه، حتى أخضع للتحقيق والتعذيب..

علّقوه من كتفيه في الهواء لأكثر من خمس ساعات، وعلقوه من ساقيه أيضاً، ومارسوا معه أحـــدث مـــا توصلت إليه أدمغة المتخصصين باستخلاص المعلومات..

ورغم ذلك وعلى مدى أكثر من عشر سنوات من الأسر لم يتمكّنوا من الحصول على توقيـــع تعّهـــد أن يكون "آدمي"، وأن لا يشارك بأي عمل تخريبي، وأن يبّلغ عن أي عمل مشبوه ضدّ سلطة الاحتلال..

فاطمة..

ابنة عمه وحدها بعد أن فقدا أقربائهما كانت مواظبة على زيارته في المعتقل دون انقطاع.

ويوم خرج من المعتقل، تزوجها وأقاما في مخيم على مشارف مدينة "البيرة" الملاصقة لمدينة "رام الله"، واللتين لا يفصل بينهما أكثر من علامات مرسومة على بضعة بلاطات على الرصيف الممتد..

ومنذ ذلك الوقت وأمام أي حادث "تخريبي" سواءً في المناطق القريبة أو البعيدة عن مكان إقامته، كـــان يساق إلى الفروع الأمنية، ويخضع للتحقيق والتوقيف مدداً متفاوتة..

حين انطلقت الانتفاضة، أصبح الوضع أفضل. فقد صار من العسير على الجنود الدخول إلـــى المخـــيم وإلقاء القبض عليه وسط الفوران الشعبي المتعاظم.

وبسبب ذلك أحسّ أن تحرّكه صار أيسر، وأصبحت دكّانه الصغيرة التي يعتاش منها – بعد أن أعجزته عيناه عن ممارسة المهنة التي تعلّمها–، مركزاً حقيقياً لتحركات المنتفضين، ومكانـــاً مختـــاراً للتنظـــيم والتوجيه والتنسيق والتمويل في بعض الأحيان.

ولم يخل الأمر من اصطياده بين الحين والحين من قبل العناصر السرّية، وإخضاعه للتحقيق، ولو أنه لم يعد يشكّل بمنظورهم بعد أن طعنه الزمن والمرض، خطراً حقيقياً يحسب له حساب..

فاطمة.!

ليتها لا تقلق عليه هذه المرة، فقد مضت تلك الأيام، منذ اليوم الذي أطلّت فيه وجوه الرفاق من مشـــارف رام الله..

رآهم من وراء نظّارته السميكة.. كانوا قلائل لكنه أصرّ على تسميتهم بالطلائع..

وخرج مع الألوف بالهتاف والزغاريد، وحفنات الرز، وقبضات السكاكر، يستقبلون الأمل، ويشرقون مع صباح جديد لم يكن على اتساع الأفق الذي يطمح إليه، لكنه بدأ..

أحسّ أن عمره كلّه يستلقي تحت أقدامهم بفرح ليس له مثيل.

هي البداية التي طالما انتظرها..

لا بد أنه يعرف الشاب الجالس أمامه في صندوق الجيب..

لم يعد يذكر متى، ولا أين، لكنه يعرفه بالتأكيد، فهو لا ينسى الوجوه التي يراها..

حدّق من جديد عبر نافذة الصندوق الضيّقة، مرّت لوحة كبيرة برّاقة مضيئة استطاع أن يقـرأ حروفهـا الأولى:

سينما الوليد..

ابتسم بفرح..

رام الله.. لم يبتعد كثيراً إذن، إنه ما يزال في الوطن..

تهيأ له فقط أن المسافة طالت أكثر مما يجب.!

وقفت الجيب أمام بناء شاهق، استطاع أن يشاهد بوضوح عدداً من الجنـود يحملـون أسـلحة خفيفـة ويحيطون به..

سار أمامهم.. شّد كتفيه المنهكين، ورفع رأسه قدر ما يستطيع.. أحسّ نبضات قلبه تتسارع، كأنه علـى وشك التحليق إلى فضاء عاش معه حلماً قضى فيه طيلة عمره الحزين..

في صدارة القاعة الرحبة، كان يجلس منتفخاً، يحمل على كتفيه عدداً من النجوم المذهّبة، وينقر بطـرف قلمه الأنيق على الطاولة نقرات رتيبة..

نظر إلية بلؤم.. وضرب كفّه على دفتر ضخم جلدته حمـراء مكتـوب عليـه بوضـوح "الإرهـابيون الخطرون".. ثم صرخ من بين أسنانه الصفراء..

– أين كنت.....

ولم ينتظر جواباً.. أشار إلى أحد الجنود وتمتم دون أن يرفع ناظريه عن الدفتر الكبير..

– خذه إلى القبو..

حدّق حوله في المكان، تناثرت أسلاك كهربائية كثيرة، لمعت الجنازير والسلاسل وزنود السجّانين، لمس رطوبة الجدران ونزيز الماء المتسرب من كل مكان، تعلّقت جثته في الهواء ورأسه إلى الأسفل، شمّ رائحة الزنزانة المنفردة..

شدّ كتفيه مرة أخرى، ورفع صدره.

ضرب الأرض بخطوات واثقة ومتصلّبة، أحسّ أنه أمام بداية جديدة ضخّت في شراينه دماً جديداً، وشباباً خاطفاً...

أمام الباب الحديدي الصدئ، وقف إبراهيم الكسواني فجأة كالمسمار..

نظر إلى الشاب الأسمر صاحب السترة الفضفاضة وقال بصوت هادئ دفع فيه خلاصة إنسانيته..

– الآن تذكّرت.. أنت ابن أبو إسماعيل..

أطرق الشاب النحيل الأسمر، ودفعه برفق إلى داخل المكان المظلم..

وقبل أن يقفل الباب وراءه سمعه بوضوح يتمتم بسخرية..

– أين أنت يا فاطمة..؟

الغــوراني والدوشكــا..

إلــى أبطــال قضـوا.
ولـم يذكـرهم أحـد.!

ركبت الــ (فان) المتّجه إلى الجنوب المحرر..

ساعتها لم يكن في رأسي مشروع محدد، بل هي عدوى أصبت بها ملأتني تحفّزاً وحماسةً وأنــا أرى أمواجاً مختلطة من البشر تتزاحم إما سيراً على الأقدام أو استماتة للحصول على مقعد أو مكان في وسيلة نقل تأخذهم إلى الجنوب..

بعد لحظات امتلأت السيارة عن آخرها وانطلقنا.. وجوه الناس من حولي متفاوتة التعابير، مــن يبتســم بانتصار، ومن ينظر بوجوم إلى تلك المساحات القاحلة المكشوفة..

لعلهم يتساءلون مثلي..

كيف استطاع المقاتلون عبور المسافة على الأقدام؟ وتحت أثقال ما يحملون؟ ينفّذون مهماتهم، ويعودون.. أيضاً عبر المسافة المكشوفة، يحققون النصر، ويصنعون المعجزة.. ولا تجدهم أو تعثــر علــيهم تلــك المعدّات التكنولوجية المكّومة في ترسانات العدو فوق قمم التلال، وأبراج القلاع العملاقة، ولا تقدر على رصد تحركاتهم المناظير المتطوّرة، ولا الرادارات، ولا الأشعة فــوق البنفســجية ولا أرقــى وســائل الاستكشاف والتحسس عن بعد، ناهيك عن المراقبة بالعيون المجرّدة..

وأنا من مكاني هذا فوق برج القلعة أستطيع أن أميّز بسهولة إذا ما قصدت المراقبة وعن بعد شاسع بين إنسان وقط..

همس صوت في أذني لم يسمعه سواي:

– لابد أنها مسألة تحصين متين، وتمويه ممتاز.!

* * * *

الشاب النحيل الجالس بسكون إلى جانبي، يكاد لا يتحرك ولا يرمش له جفن..

يبحلق في الفضاء المترامي حولنا.. شعرت أنه يختلس النظر نحوي، بعد لحظة لكزني بكوعه..

– هل تعرف قلعة شقيف.؟

وقبل أن أجيب وأقول بأنني لا أعرف غير اسمها، ولا أعرف مكانها بالضبط رغم أنني ســمعت عنهــا الكثير. انبرى سائق "الفان" ذو الوجه المربع دائم الابتسام..

– نصلها بعد ربع ساعة..

وكأن تلك المقدمة المقتضبة كانت تقف سداً في وجه سيل الكلام الذي راح يتدفق بغزارة من بين شفتيه السميكتين.. لعله أدرك أن ركاب سيارته يزورون المنطقة للمرة الأولى، وهي فرصه ذهبية لاحت أمامه للحديث دون توقف، وشرح أدق التفاصيل، مؤهله الأول أنه ابن المنطقة..

– بعد أن نخرج من النبطية، تظهر عن بعد القلعة المنتصبة فوق نهر الليطاني، إنها تتوسط الجنوب، وتشرف على شريط القلاع المتناثرة هنا وهناك، هونين وتبنين.....

وعلى البحر والسهول والتلال والقرى والمدن.. أرنون الفوقا والتحتا، القليعة، النبطية، وبرج قلاوي، وبانياس، ومرتفعات جبل عامل وحرمون وأعالي الجولان وهضاب صفد ووادي الأردن..

سكت لحظة، كأنه يشّد انتباهنا ثم تابع بحماس أكثر..

– يا أخي قلعة ليس لها مثيل في العالم..! كأنها حارس للممر الجنوبي الذي يربط شاطئ صيدا وصور بالبقاع حتى دمشق.....

يتمتم ويعطي انطباعه الخاص..

– أولاد الحرام كانوا يضعون مناظير الرصد وتوجيه المدفعية على قمتّها.. يراقبون كل ما يتحرك ويختارون ما يقصفون، على أية بقعة تقع في هذه المساحة الشاسعة الواسعة..

في اللحظة نفسها بدأت حجارة القلعة تبدو لنا عن بعد..

أعترف أنني شعرت بخيبة. فلم أكن أتصور ولكثرة ما سمعت أن أشاهد بعد الانتظار الطويل هذه الأكوام المهترئة من الحجارة المعفّرة بالشظايا، المقتلعة عنوة، تاركة مكانها فجوات قبيحة، تعلوها قناطر حديدية، كأنها أضيفت على عجل لتحمل أجهزة الرصد، أو الرشاشات الثقيلة..

جدران ناقصة ليست لها سقوف، متهالكة لكنّها ما تزال قائمة على علو شاهق، على قمّة مرتفع مخروطي، جنباته شديدة الانحدار، مكتظّة بالفضلات.. أكياس نايلون، علب وزجاجات فارغة، وما نمى بينها من أشواك وحشائش جافّة تعطيك على الفور انطباعاً على قدر من القسوة والجفوة..

مّد الشاب الجالس إلى جانبي يده من النافذة، وتمتم:

– قلعة شقيف..

ضحك السائق بصوت مرتفع، وهو يمدّ يده أيضاً مشيراً وكأنه يقدّم لنا القلعة على طبق من ذهب..

تابع الشاب بحماس..

– أنا ابن إبراهيم الحاج..

وقبل أن ينهي جملته، التفت السائق بكامل كتفيه، وألقى نظرة شحنها بأرق ابتسامة عثر عليها في زوايا وجهه المربّع.. وأردف:

– الغوراني.؟

* * * * *

لست أدري كيف نقلتني هذه الكلمات إلى هناك في لحظة، وكنت أعتقد أنني نسيت، أو أن السنوات التي مضت تراكمت بأحداثها الكثيرة فوق الذكرى، وضيّعت حتى رغبة التذكّر..

في زنزانة ضيقة رطبة، وراء باب حديدي سميك، أمضيت معه ومع أربعة أشخاص آخرين، عشر سنوات كاملة..

كنا نناديه بـ"الغوراني" أيضاً.. وقد حمل الصفة تلك كما حملها غيره من اسم المنطقة التي ينتسب إليها.. كان عنيداً مشاكساً لا يكف عن التحدي وافتعال المشاكل، وبقي على صموده العجيب حتى في الأشهر الأولى من اعتقالنا، والتي تعرّض فيها "كما تعرّضنا" إلى أشدّ صنوف التعذيب، وأيام كثيرة متوالية في زنزانة انفرادية ضيقة، لا تتّسع لأكثر من كتفيه، وسطل أزرق يقوم مقام المرحاض، ولفافة من الورق الهشّ، ونقاط ماء تسقط من عل، ولا تتوقف ليل نهار، وأصوات صرخات مرعبة تنطلق فجأة بين الحين والحين، ولا تعرف مصدرها..

يومها في الصباح الباكر همس في أذني:

عندما يدخل "ابن الـ....." سأقتله..

وأخرج من طيّات قميصه المخطط ملعقة معدنية، طوّعها بطريقة ما لتصبح ذات رأس حاد..

* * * * *

أطلق السائق ضحكة طويلة متهدّجة، وأطلّ برأسه من نافذة السيارة، تماماً إلى جانب رجل عجوز، تجاوز عقده السابع، يرتدي معطفاً طويلاً يطاول ركبتيه، ويعتمر كوفية زرقاء يغطي بها نصف وجهه، ويحمل في يده الواحدة صرّةً ملفوفةً بعناية..

بدأ "الفان" يتهادى على وشك التوقف.. عندما صرخ السائق بسخرية:

– السيارة التي وراءنا ذاهبة إلى حيفا..

عاد إلى وضعه الأول، والضحكة ما زالت معلقة على أطراف وجهه المربّع..

– مسكين.. منذ بدأ سيل الناس يتدفق إلى الجنوب وهو ينتظر من يحمله إلى هناك.. أكثر من خمسة أيام وهو يقف هنا يشير إلى السيارات العابرة، وعلى لسانه جملة واحدة، مقتضبة:

– أنا من حيفا.. خذوني معكم..!

* * * * *

كنا يومها مجموعة من ثلاثة أفراد، مهمتنا زرع عبوة ناسفة على طريق فرعي تستخدمه بين الحين والحين دورية مؤلفة من سيارة واحدة ناقلة جنود.. في منطقة جبلية تشبه الغابة وذات تمويه طبيعي ممتاز، من حيث كثافة الأشجار، وصعوبة المسالك، والنتوءات الصخرية.

تسللنا حسب الخطّة، نحمل عتادنا ومعدّاتنا.. بعد لحظات فوجئنا بكمين ينتظرنا وكأننا على موعد..
بعد ساعات، أدخلونا المعتقل.. يومها تعرفّنا على "ساري" اليهودي الجزائري المكلّف حراسة غرفة إقامتنا في السجن..
مخلوق فظّ، طويل عريض ضخم الجثّة قوي البنية، ذا وجه جاف لم تعرف الابتسامة طريقاً إليه.. كان يتلذذ بتعذيبنا، وغالباً ما يبرع باستفزازنا ويكلّفنا بأعمال حقيرة ليس لها علاقة بالسجن أو بنا، ولا يكف عن ضربنا، وتوجيه أفظع وأقذى الشتائم لنا في كل الأوقات..
دفع الباب الحديدي بكتفه "كما يفعل دائماً" وبدأ بعبارته المعهودة..
– يا غوراني.. يا ابن الـــ.....
وقبل أن يكمل جملته، انغرز ذيل الملعقة الحاد في صدره..
بعد أيام عاد "ساري" بقذارته وبذاءته لحراستنا..
واختفى الغوراني..!

* * * * *

لأول مرة منذ انطلقت رحلتنا إلى الجنوب، ألاحظ الرجل الجالس على المقعد الخلفي، يحمل فوق ركبتيه "صحناً مليئاً بالبيض.!" حسبته أول الأمر من سكّان المنطقة، يتحدث بصوت منخفض مع فتى أسمر، بعينين صغيرتين متحفزتين يجلس إلى جانبه، عرفت فيما بعد أنه ابنه الأصغر..
في اللحظة التي وصل فيها "الفان" إلى آخر نقطة يستطيع الوصول إليها، أعلمنا السائق أنه ينتظر عودتنا هنا بعد ساعة لا تزيد، وعلينا أن نقطع المسافة القليلة الباقية سيراً على الأقدام للوصول إلى (بوابة فاطمة)..
انطلق الرجل وصحن البيض بين يديه، شق زحام الناس وصراخهم بكتفيه، والتصق بالشريط الشائك، وضع الصحن بهدوء على الأرض، والتفت إلى فتاه الأسمر وأطلق عبارة واحدة..
– إبدأ..
وبدأ الفتى بقذف البيض واحدة بعد واحدة من فوق الشريط إلى الجهة الأخرى..
لم أملك في تلك اللحظة سوى تشييع ابتسامة عبّرت بها للرجل السعيد أمامي "وهو يمارس فروض التشجيع ويحثّ ابنه على المجاهدة بقوة أكثر للقذف إلى مدى أبعد" عن جهلي كل الوقت الإلمام بفوائد البيض الأخرى..
رأيت في وجوه الناس فرحة لا يستطيع أحد الإمساك بتفاصيلها.. بدت لي الأكتاف التي كانت على مدى سنوات وسنوات منهكة وكسيرة.. قوية ومشدودة، ورأيت العيون ما تزال تنظر إلى الجنوب، وهي تقابل أهلها وأحباءها لأول مرة منذ أكثر من نصف قرن، عبر شريط شائك مرتفع لا يحجب الرؤيا..

– مين فاطمة السعيد..

تنبري واحدة من الجانب الآخر:

– أنا هون.. كيف حالك خيتا..

وتخترق العبرات بقية الكلام، وتبدأ المناديل البيضاء تلتقط الدموع.. لست أدري أهي دمـــوع فـــرح، أم دموع شقاء..

– شو صار عندك ولاد خيتا..

تنتزع صوتها من فيض ألوان ثوبها الذي شغلته بيديها..

– خمس ولاد، وعشرين حفيد..

وتقف الكلمات مرة أخرى على حافّة الشريط.. وتطفو صراخات مختلطة..

– ابن أخوك أبو حسن.. مات..

يأتي الصدى من الطرف المقابل:

– ابن فرج الناطور مش معروفة وين أراضيه..

حتى اللكنة ما زالت كما هي صافية برّاقة.. تستطيع أن تلمس وتتعرّف وأنت تسمعها على كـــل المـــدن والقرى، وأشجار الزيتون والبرتقال، وساحل البحر وأسماكه، وتستطيع أن تشّم رغم الشـــريط الشـــائك المرتفع عبق المناديل البيضاء، والأثواب المزركشة بالأبيض والأحمر والأخضر..

* * * * *

– أنا من حيفا.. خذوني معكم..

تقف وراءه امرأة بدينة، تحمل حول عنقها قلادة طويلة مكتّظة بعدد لا يحصى من المفاتيح، تصرخ بين الفينة والأخرى..

– اللي ما معوش مفتاح، ياخذ مني واحد ويقول إنه مفتاح بيته..

ينظر الرجل العجوز في وجهي ببلاهة.. يمسك كتفي ويهزّني..

– مره مجنونه.. كل عمرها وهي تجمع مفاتيح، من هون ومن هناك، اليوم جاي تفرقهم ببلاش..

يسكت لحظة ثم يستدرك وكأنه تذكّر شيئاً على قدر من الأهمية..

– والله يا عمي أنا مفتاحي أصلي، عمره 52 سنة..

يمسكني الشاب الأسمر، يقول لي هامساً..

– أنا ابن إبراهيم الحاج.. الشهير بالغوراني..

أنظر إليه باستغراب.. الغوراني الذي أعرفه لم يتزوج..

يتابع باندفاع..

– لم يستطع أحد إخراج جثة والدي من تحت سقف برج قلعة شقيف المنهار..
تزداد مساحة الابتسامة انفراجاً على وجه السائق المرّبع، ويلتفت إلينا، مقاطعاً حديث الشاب الأسمر.
– ثلاثة أيام وهو صامد وراء الدوشكا.. ينقله من مكان إلى مكان، ومن زاوية إلى أخرى، يلاحق بالرصاص المهاجمين من مختلف الجهات.. لم يستسلم، ولم ينسحب..
أخيراً قامت طائرات كثيرة بهجوم شامل ومركّز، أطلقت قذائفها الدخانية الملوّنة، وصواريخها الثقيلة..
سكت لحظة ثم تمتم بحزن:
– انهار سقف برج القلعة على الرجال القلائل الذين صمدوا وأوقفوا تقدم العدو.. سقط فوق الغوراني وعشرة رجال فقط، هم كل من كانوا حماة للقلعة..
ابتسم الرجل الآخر بانتصار، وهو يربت على ظهر ولده الفتى المتحفّز، ينظر إلى كفيه الملطخين بصفار البيض اللزج..

* * * * *

تساءلت دون أن أجرؤ على البوح..
– هل يمكن أن يكون الغوراني النائم تحت سقف القلعة المنهار هو والدوشكا منذ قرابة عشرين سنة، هو نفسه الغوراني الذي اختفى ذات يوم من معتقل الصرفند..؟

الحكيـــم بتـــاح.!

قال "نوّار " الابن الأصغر في أسرة العم مدكور"..

– نقطع الحبل، ونكسر الجرّة..

تململ "العم مدكور"، وبينما كان يمسح على ظهرها برفق، راح يعلن شكوكه..

– شظايا الجرّة تجرح وجهها، وربما تفقأ عينها.. "سكت قليلاً ثم أردف"

– مشكلة لن يحلّ عقدتها غير الحكيم "بتاح"..

* * * * * *

حبل حقير مشدود إلى وتد مدقوق في الأرض الصلبة، مربـــوط حـــول عنقهـــا القوي. يرسم بلؤم حركتها في دائرة لا يزيد نصف قطرها عن متر واحد، ترعى في حلقته الضيقة رطباً من البرسيم اليانع على مدار يوم كامل . من ساعة بزوغ الشمس وحتى مغيبها..

يوماً بعد يوم، ولا شيء يتبدّل سوى الانتقال البطيئ من مركز دائرة مستهلكة، إلى مركز دائرة أخـــرى تبدو مع إشراقة الصباح مختلفة، لكنّها في الحقيقة ليست إلا نسخة تطابق مثيلاتها مع أفول الشمس..

هكذا قدر تلك المخلوقة، رغم فضائل قدرتها المذهلة على العطاء..

ولعل الحيوانات بأنواعها وأجناسها وصفاتها المعطاءة، والمجّترة والحلوب والولود تختلف "من حيث تقبل بل وفرحة تقبل جنس المولود" عن الطموحات الدائمة للإنسان.. لتحتل الأنثى في كل الأحوال، المركز اللائق الجدير بالاهتمام الأقصى والفرحة المشروعة..

حين أطّلت "حورية" جلبت بقدومها السعيد الفرحة لأسرة "العم مدكور"..

كانت جميلة. ثوبها الأبيض المعشّق بالأسود اللامع يضيف إلى أبعاد جسدها المتناسق جمالاً رفعها طيلة مراحل نموّها إلى مرتبة فائقة التقدير..

مثّلت الأمل المرتجى للأسرة، أرست وأقامت من عطاء خيرها الأول "الغرفة الوحيـــدة اللائقـــة لســـكن الأسرة الفقيرة" لتواصل مع دفق خيرها اليومي رسم تفاصيل الأحلام التي باتت ممكنة،، وصارت فـــي ظلال أمسيات طويلة على مقربة من ملمس الأصابع، تحمل دمها وروحها وتتدفق حيّة مبشّرة بمســـتقبل مشرق، لا بد أن تأتي به هذه البقرة الرائعة..

– غداً تكبر.. تنتزعنا من دوّامة الفقر، تربي أولادنا، تعلّمهم، تخرجّهم من الجامعات، مهندسين وأطباء "يشطح الخيال" وتصّير أحدهم وزيراً مثلاً، ولم لا..

"حورية" الأصيلة الرائعة، عطاؤها لن يكون له حدود..

في دائرة لا يزيد نصف قطرها عن متر، يوماً بعد يوم، فوق أرض شاسعة واسعة ممتدّة بين ساحل جنوبي، تنتهي عند شاطئه القارّات، وسلسلة تلال تتمسّح على سفوحها الخصبة أشجار "الجمّيز" الشامخة هنا وهناك، مترامية حول البيّارات المفرودة على امتداد النظر، تغوص شرقاً وجنوباً حتى ضفاف صحراء كانت منافي لقتلة الأنبياء..

يزرع بعضها "العم مدكور" برسيماً ومحاصيل أخرى، تكفيهم "وحورية" موسماً بعد موسم. لتقلب القدرة الخّفية فيضها المرّكب إلى لحم وحليب، وقبيلة عجول، وجامعات ومدارس، وأحلام لا تنتهي..

في يوم صيفي حار، حفرت شمس الظهيرة أخاديد قاحلة في جوفها الملتهب.. كان الوتد المغروز في الأرض أضعف من نداء العطش، فانتزعته من مكانه.. ومضت في غياب المراقبين تبحث عن الماء..

اقتحمت باب الغرفة المشرع دائماً إلى الغرب، يستقبل الضوء والريح وأطياف الغرباء..

شدّها ذلك السائل الشهي المعبأ في جرّة فخار كبيرة ملفوفة بقطع كثيفة من الخيش. لحظات وأدخلت رأسها الضخم فيها، عبّت من الماء قدر ما استطاعت، وحين أرادت الابتعاد لم تستطع تخليص رأسها من فوهة الجرّة، وانحشر فيها..

في الوقت الذي علق الوتد المقلوع بين العتبة والباب وجانب الجدار ليثبّتها وسط الغرفة.

رأسها محشور بإحكام في عنق الجرّة الفخارية، وجسدها الضخم القوي مشدود بقوة إلى الحبل العالق في شق الجدار..

– تنادت الأسرة والجيران وأهل القرية أمام الحدث الجلل..

الحالة الغريبة التي لفتت انتباه القوم، أن البقرة خلال ذلك الوقت العصيب حافظت بجدارة على هدوئها.. كأنها تنتظر بصبر جلاء الأمر. أو أنها أحسّت بانتعاش أكثر ورأسها يلتقط رطوبة الفخّار المشبع بالماء، متجاهلة ذلك التوّتر الحذر والقلق المتحفّز للأحياء المشدودين من حولها.

كل يتقدم بفكرة تساعدها على الخلاص، وكل يدلي بما يراه الحل الأمثل للخروج من هذا الوضع الشاذ العجيب.. بينما يجتاحهم قلق مجهول..

ترّقب حزين، يكاد ينتزع من بين أصابع الأسرة المتوّثبة كومات الأحلام التي رافقت أمسياتهم..

فجأة يقفز اسم "الحكيم بتاح"..

"بتاح" لا أحد يعرف كيف ولا من أين حمل هذا الاسم العجيب.. ولماذا.؟ ولا من أين جاء، ولا من أين اكتسب والده الحكمة التي اشتهر بها.؟

يذكر سكان القرية أن والده كان كذلك.. يعالج الأمراض ويشفي الجروح ويعرف خصائص الحيوانات والمزروعات.. يتحدث أمامهم في كل مناسبة عن عالم كبير عجيب يستوطن شاطئ البحر الآخر..
كان حكيماً وطبيباً.. صبّ كل ذلك العطاء الفطري الذي اكتسبه من عوالم مجهولة في تكوين ابنه "بتاح".. فخرج مثله حكيماً طبيباً لا يشق له غبار.
اختار لنفسه موقعاً فوق شجرة "جمّيز" ضخمة جعله مكان إقامته المفّضل.. يقضي فيه أوقات تأمل طويلة تسوق الحكمة إلى عقله، وتشحنه بالصبر..
يتظلل بأغصانها الوارفة، ويستمتع بروائحها وألوان أوراقها وزهورها، ويأكل من خير عطائها..
شجرة معّمرة ضخمة، يصل محيط جذعها إلى عدّة أمتار أحياناً، تطرح بغزارة كل شهر ثماراً زهرية طيبة تشبه ثمر التين.. كل شهر، على مدار السنة. ثمار شهية طيلة أحد عشر شهراً، وفي شهر واحد فقط تطرح ثماراً أيضاً، لكنها لا تكون مستساغة..
تعّود "الحكيم بتاح" أن يصوم في شهر عطائها المزيف..
رجل نحيل رقيق العظم، حاد النظرات هادئ الملامح، يحمل في تقاطيع وجهه خليطاً مركّباً لأشكال وجوه بشرية تنتمي إلى أمم وشعوب مختلفة.. يرتدي ملابس رّثة، تكمل صورة إنسان زاهد، لا يعنيه أمر الدنيا من قريب أو بعيد..
دخل الغرفة بوقار.. كانت "حورّية" مستكينة وهادئة.
رأسها الضخم محشور في الجرّة الفخارية، والحبل المشدود على رقبتها يثّبتها في مكان واحد..
جلس "بتاح" في ركن الغرفة، وبدا كأنه يقّلب الأمر على وجوهه المختلفة، ينشد اختيار أسهل الطرق وأسلمها لإنقاذ البقرة..
وقف بعد قليل واقترب من رأس البقرة المحشور وبدا كأنه يتحدث إليها بلغة غريبة لم يفهمها أحد من الناس المتحفزين..
قال وهو يحاول شرح الأمر:
– لا نستطيع تخليص البقرة قبل أن نحررها من الحبل المحشور في شق الجدار.. وهذا الأمر يتطلب هدم جزء من الجدار..
أردف "العم مدكور" بحماس..
– نعم هو كذلك سأحضر الفأس..!
قاطعه "بتاح":
– ولا نستطيع هدم جزء من الجدار خوفاً من انهيار السقف..
[سكت لحظات وتابع]

– علينا اقتلاع السقف أولاً.!

بدا الوجوم على وجوه الرجال..

لكن أحدهم لم يقلل من قدرة الحكيم "بتاح" على إنقاذ الموقف..

– إذا اقتلعنا السقف دفعة واحدة تتعرّض الجدران للانهيار، ونخسر كل شيء..

تصاعدت همسات الاستحسان..

– علينا أن نبدأ العمل إذن، فالوقت ليس في صالح أحد على الإطلاق..

توزّع الرجال الأعمال فيما بينهم..

من بدأ في رفع السقف، في الوقت الذي أقام آخرون أعمدة ثقيلة لتدعيم الجدران..

وما أن انتزع سقف الغرفة من مكانه، حتى بات أمر إزالة الجدران في غاية السهولةً، لا يحتـــاج إلـــى أكثر من دفعات بسيطة ليتهاوى على الأرض من الجهة الأخرى..

أزيلت الغرفة..

وبقيت البقرة واقفة في مكانها، لم تتحرك منه قيد أنملة، ليكتشف الجميع "بعد أن حرّروا الحبل العالق" أن سكونها في موقع واحد لم تتحرك عنه لم يكن بسبب الحبل المحشور في شّق الجدار..

ما زال رأسها محشوراً في الجرّة، وما زالت هادئة ساكنة..

بدا الضيق على وجه "العم مدكور"..

أحّس أن الأحلام تتسرب من بين أصابعه، وتوشك أن تصير إلى جفاف مثل قطرات الماء المتبّقية حول عنق الجرّة والمتسربة ببطء إلى رأس "حورية"..

صمت الحكيم بتاح طويلاً..

أمسك رأسه بين راحتيه، وبدا كأنه غاب في عالم آخر يستدّر منه فيض حكمة تعطيه القـــدرة الخارقـــة لاختيار الوسيلة المثلى..

فجأة، انتفض كمن لسعته أفعى..

نظر بسخرية واستهزاء إلى "نوّار" أصغر أفراد أسرة "العم مدكور"..

ثم هّب واقفاً. شد كتفيه الضئيلين، وفتح ذراعيه، وألقى على مسامع المنتظرين بصمت وخشوع خلاصة الحكمة التي تراكمت في تكوينه وورثها عبر سنوات تأمل كثيرة..

جملة واحدة، أسقط كلماتها بهدوء وثقة حرفاً وراء حرف:

– الآن حررنا الحبل.!

"تابع بعد صمت قصير، وهو يخفي ابتسامة خبيثة":

– بقي أن نكسر الجّرة..

السيرة الذاتية للكاتب عدنان كنفاني

مواليد يافا ـ فلسطين

مهندس ميكانيك

أديب وكاتب وصحفي

عضو اتحاد الكتّاب العرب

عضو اتحاد الكتّاب والصحفيين الفلسطينيين "فرع سورية"

ومقرّر جمعية القصّة

صدر له:

غسّان كنفاني، صفحات كانت مطويّة.. سيرة

حين يصدأ السلاح.. قصص

قبور الغرباء.. قصص

على هامش المزامير.. مجموعة قصص قصيرة

بدّو.. رواية "وهو اسم قرية فلسطينية تقع شمال غرب مدينة القدس"

أخاف أن يدركني الصباح.. قصص

رؤى.. قصص مشاركة مع مجموعة قاّصين

بروق.. قصص مشاركة مع مجموعة قاصّين

أطياف.. قصص مشاركة مع مجموعة قاصّين

مسرحيّة وطنية "مونودراما" بعنوان "شمّة زعوط"

رابعة.. رواية "تحت الطبع"

مجموعات قصصية تحت الطبع

ويكتب أيضاً الشعر والمقالة والدراسة والبحث وينشر في الصحف والمجلاّت والدوريات المحليّة والعربية..

ص.ب دمشق 10481

هاتف 8884767 - 8821734

موبايل 0096393506494

بريد إلكتروني kanafani@scs-net.org